المبـــــروك

رواية

صلاح البشير

المبـــــــروك
المؤلف : صلاح البشير

الطبعة الأولي : يونيو 2017
رقم الإيداع : 2017/13106
الترقيم الدولي : 978-977-769-181-9

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : (02)23963002

إهـــــــــــــداء

إلى حفيدتي لين عاطف يوسف .. شكراً لك فقد كنت سبباً لأعرف معنى أن اكون جداً .. محبتي

جدك صلاح

(1)

لمْ تختلف حالتها مِن الصمت منذ ولادتها لابنها العُشاري .. هي كما هي فِي سخطها أو رضاها، فرحها أو غضبها، رغم مرور هذه السنوات الطِّوال .. تعلم أنَّ ابنها مِن الصالحين، مِن رجال هذا «الفريق» .. وهذا ما يعرفه صفوته وعامته وحتى السابلة فِيه .. لكنهم لا يفتأون يذكرون نسبه ويشيرون إليه، ويشككون فِيه بعض التشكيك تارة وكثيرًا مِنْه تارة أخرى .. صريحاً مرة ومدخولاً مرة .. لا ينصفونه إلا حين حاجتهم إليه .. ولا يلتمسون وجه الحق فِيه .. لكنهم عجزوا أنْ ينفروه أو ينفدوا حيله .. أو يضطروه إلى غير ما اعتادوا مِنْه .. وهي لا تدري، أو لا تكاد تدري، متى يرفعون خصوماتهم تجاهه، أو تصفو نفوسهم إليه .. ليروا فِيه ما هو أعظم مِن النسب الصريح أو المدخول.

لمْ يكن العُشاري يُقْبِلُ على أهل «فريق بير الشيخ» كما يقبلون عليه، كان يحبهم ويقبل عليهم، ويسرف فِي هذا الحُب والإقبال، وكانوا يختلفون فيما بينهم حباً وبغضاً، وإقبالاً وإعراضاً، وقد تعودوا بأنه

«المبروك» أو «العُشاري المبروك» كما يسمونه ويصفونه .. ملأوا الدنيا وشغلوا الناس ببركاته وكراماته التي لا تنقطع، كانوا يعرفونه أعظم المعرفة عند حاجتهم إليه، وينكرونه أشد الإنكار عند حاجته إليهم، كان حظه معهم عند حاجتهم إليه وافراً، وشحيحاً عند حاجته إليهم، كان العُشاري أو المبروك سراً مِن أسرار الكون يحيط بـ"فريق بير الشيخ»، دون أنْ يملأ نفسه بشيءٍ مِن الضغينة والحقد، أو يفعم قلبه مِن الموجدة والبغض .. لا يكشف على ما يدل عليه مِنْ غموض أو يستر حقيقة ما بينهم مِن الشد والجذب فِي أمره.

وقد تعود أهل «فريق بير الشيخ» أنْ يؤمنوا بقدراته الخارقة أعظم الإيمان .. ويفسرونها فِي إجلال مشوبٍ بالخوف ويزيدون عليها ما شاءوا أنْ يزيدوا .. لكن الشيء الذي لا شك فِيه أنهمَّ لمْ يتفقوا على كونها كرامة مِنْ كرامات الأولياء أو مسًّا مِنْ عمل الشيطان، ومهما يكن مِنْ شيء فقد كان للعُشاري المبروك قدرة فائقة على التنبؤ بأحداث المستقبل، فملأ دنياهم بها، وأسر عقولهم، وتباينت قلوبهم حباً وبغضاً، وكان العُشاري يعرف قدره بين الناس رفعة ووضاعة عند الحاجة إليه والحاجة إليهم، لكنه كان يحبهم حتى أفسد عليه الحب أمره كُله.

جلست سالمة أم العشاري على «عنقريب» مهترئ الحِبال فِي «راكوبتها» المشرعة أمام «تكل» البيت الفقير مِنْ كل شيء، تفلي

التراب بعصاةٍ فِي يدها .. وتسند بالأخرى خدها، انسابت نظراتها المحتطبة مِنْ غابات الخوف بلا هدى أو دليل .. وكرَّت مسبحة ذكرياتها إلى عشرين سنة مضت وهي تجر طفلها العُشاري وتدفعه إلى الإسراع حين يتأخر عنها منشغلاً ببعض اهتمامات الصغار هنا وهناك، اتخذا طريقهما شرقاً صوب بيت الناظر الواقع بين جامع «الفريق» والمدرسة المتوسطة التي يعمل فِيها الناظر .. حيث يجتمع الناس للتحضير لحفل زواج فطين بت الناظر والدُّخري ود نور الدائم شيخ العطارين فِي سوق المدينة.

لا تزال تذكر طفلها وهو يتقدم ناحية العروس التي لا تسعها الفرحة بزواجها .. ويضع يده على بطنها وهي تنظر إليه فِي سعادة .. وتجلسه بجانبها فيقول تلك الكلمات التي لمْ يدركها أحد ساعتذاك: «بطنك شايل عروسي» .. ضحك كل مَنْ سمع كلمات الصغير وقتها إلا هي توجست خيفةً لسببٍ لا تعرفه، كان الطفل يعلن أمره فِي وضوح ويجهر به، تجاهل الحاضرون حينها الصغير وكلامه وانصرفوا للاحتفال بعروسهم ما شاء الله لهم أنْ يحتفلوا .. إلا سالمة أبت الفرحة أنْ تغشاها منذئذ.

مضى عامان علي زواج فطين بت الناظر وبطنها يأبى أنْ يشيل .. وبدأ القلق يتسرب إلى النفوس .. وتحدثت نساء «الفريق» عنْ عُقرها همساً ثم علت الأصوات تتبعها ضحكات شامتة تتجاوز المعهود ..

وأصاب العطب حبال المودة والمحبة بينها وزوجها الدُّخري، وتحول الشك فِي عُقر زوجته يقيناً فأساء معاملتها ومضت الأيام ثقيلة بينهما تستدعي أكدارها بينهما مسرفة فِي الاستطراد بلا رفق.

لمْ تدر سالمة أتفرح لعُقر فطين بت الناظر أم تحزن .. فكلمات ابنها لا تزال تصك أذنيها «بطنك شايل عروسي» .. لكنه لمْ «يشِلْ» رغم مرور عامين على زواجها مِن ابن شيخ العطارين .. لمْ ينفع معها طب الطبيب ولا عطارة النسيب .. رفض بطنها أنْ «يشيل» .. فهل كان ابنها مخطئاً هذه المرة؟ إنه لا يخطئ أبداً حين يقول أمراً يتعلق بالمستقبل .. كيف تتأكد مِنْ صحة ما قال به؟ لمعت عيناها فجأة .. ونادت على ابنها .. ثم ألبسته أفضل ما عنده .. وقالت مداعبة: «يلا نمشي لي خالتك فطين بت الناظر» .. أحست بفرحته الغامرة ورأت ابتسامة واسعة ترتسم على ثغره الصغير .. حاولت تجاهل فرحته وابتسامته .. وسحبت ثوباً غطت به نفسها .. ثم جرته خلفها إلى بيت بت الناظر.

طرقا الباب وهي ترى ابتسامة الطفل تزداد اتساعاً وتكاد تجزم أنَّها رأت دمعة تنساب خجلة مِنْ بين جفنيه .. ترى ما سر هذه السعادة؟ فتح الباب وأذنت لهما الخادمة بالدخول .. انقبض قلبها دون أنْ تدرك لهذا الانقباض سبباً .. كادت أنْ تتراجع للوراء .. لكنها سمعت صوت أم فطين يدعوها وابنها للدخول .. أحست

فِي صوتها أخلاطاً مِن الحزن والغضب المكتومين .. دخلا إلى بهو البيت الكبير فإذا فطين تبكي فِي حرقة، وإذا أمها تحاول أن تهدئ مِنْ روعها قائلة:

• ما تبكي يا بتي .. طلع ما عندو أصل .. يعني شنو ما شيلتي لي هسه .. الدكتور قال ما فيك حاجة .. صبر ما في .. الناس بقعدوا بالعشرة سنين .. هو الشفقة ليهو شنو .. سنتين ما قادر يصبرن .. كمان عايز يعرس فيك عشان الجنى .. يجن الجن الما منو دوا ..

نظرت فطين إلى أمها بعين دامعة مستغيثة لكنها لمْ تنبس ببنت شفة .. وسالمة تراقبها بعين وتراقب حركات ابنها المبروك بعينٍ أخرى .. أحست به وقد انقلبت فرحته إلى ضيق حين رأى دموع فطين .. حاول أنْ يفلت مِنْ يدها فتركته .. هرول ناحية بت الناظر وسألها بصوت حزين:

• بتبكي مالك؟

حاولت أنْ ترسم ابتسامة مداعبة .. ضمته فِي حنان .. وضع يده على بطنها .. وكر مرة أخرى يردد:

• بطنك شايل عروسي

هذه المرة انتبه الجميع لقوله .. نظرت إليه فطين دهشة .. وارتسمت علامات العجب على وجه أمها .. حتى الخادمة نالها خليط مِن الدهشة والعجب .. وزاد خوف سالمة وانتهرته منادية إياه ليجلس

بجانبها .. فعادها قائلاً:

• سيبيني يمه شوية أقعد جنب عروسي ..

أحست سالمة بحرج الموقف .. وقالت معتذرة:

• معليش يا فطين .. جاهل ما عارف حاجة .. أمسحيها فِي وشي..

زاد نحيب فطين بت الناظر .. لكن الطفل مسح دموعها .. وقال كأنه يواسيها:

• لما بتك تجي .. بنجي أنا وأمي تاني عشان أعرسها ونسوقه معانا البيت .. سمح ..

(2)

مضت ثلاثون يوماً منذ زيارة سالمة وابنها العُشاري لبيت الناظر، تزوج فيها الدُّخري ود نور الدائم ابن شيخ العطارين مِن الجودلية بت كروم ود المساعد كبير المحاسبين فِي ديوان الحكومة، وإحدى أجمل فتيات «فريق بير الشيخ» ومُنية شبابه .. والتي لمْ تسلخ مِن العمر سوى تسعة عشر عاماً .. تزوجها لأجل أنْ تلد له ولداً يسعد به وتسعد به أمه الضيين بت الهميم قاضي القضاة الشرعيين فِي المدينة .. ففرض على فطين بت الناظر زوجته الأولى والجودلية بت كروم ود المساعد زوجته الثانية حياة جديدة لمْ تكن فِي الحسبان، حياة يحيط بها كثيرٌ مِنْ سوء الضُّر، ويأخذها كثيرٌ مِنْ كيد الغيرة، والتقى سوء الضُّر وكيد الغيرة فِي حياة ثلاثتهم متعارفين لا متناكرين.

ومضت ستة شهورٍ أخرى أبى فِيها بطن الجودلية أنْ يشيل، وانحاز إلى بطن فطين فِي شيءٍ مِن الغرابة التي قلما يجود بها الزمان فِي بيوت الضُّر، كأنه يجهل السبب الذي مِن أجله ارتبطت بزوجها ابن شيخ العطارين، وأصر العُقر أنْ يقيم بأي أرضٍ يقيم فِيها الدُّخري

ود نور الدائم، وأبى أنْ يبارح داره قط، ولمْ يستطع أنْ يحمل نفسه على ما أراد، فحياته لمْ تكن يوماً رهناً بما يريد، ولمْ تستجب ساعةً لما يقدر، لكنها كانت بيد القضاء لا يشاور فِيها أحداً، ورشح بين الناس أنه لا يلد لأنَّ به عُنَّة فضاعت ذكورته بين ألسنة الشامتين والناكرين، وأشاعت أمه أنه مربوط بعملٍ أسود مِنْ فعل زوجته الأولى فطين بت الناظر لأنه تزوج عليها الجودلية الأصغر سناً والأنقى نسباً، لكن لمْ ينجح ذلك كله أنْ يرد إليه شيئاً غاب عنه.

وساءت علائق الدُّخري بزوجيه .. فكان يأتي هذه فلا تبلغ مِنْ نفسه شيئاً، ويطأ تلك فلا تُحدِّث قلبه ولا تثير حاجته، كان يظن أنه يستطيع السلوَّ عنهما، لكنه لمْ يستطع إليه سبيلا، وغشت قلبه رهبةٌ أنْ تغفل عنه الحياة دهراً طويلاً، كما تعودت أنْ تغفل عن الكثيرين، وكانت الحياة فِي «فريق بير الشيخ»، كما كانت فِي أي مكانٍ وقتذاك، لا تحفل بالذكورة إلا بالذرية، ولا تربط الرجولة إلا بالفحولة، وكانت فِي أكثر الأوقات ضنينة وبخيلة ومستكبرة ومتعالية على الرجل حين تخونه ذكورته وفحولته.

لمْ تستسلم الضيين بت الهميم أم الدُّخري لحقيقة عجز ابنها عن الإنجاب .. ومالت كل الميل إلى جانب الجودلية العروس الجديدة والصغيرة، أسندت علة ابنها وعدم إنجابه إلى السحر الأسود وربط ابنها الذي قامت به فطين بت الناظر وأمها النمة بت الخبير .. وليس

هذا بغريب عليها ولا على أمها، فهذا حال عشيرتها فِي التعامل مع غيرهم دائماً .. وزادت بالحال الذي عليه الناظر نفسه وكيف أنَّ أمها النمَّة تسيره كيف تشاء فِي «فريقٍ» حال الذكور فِيه كحال الملوك لا حال الجواري والعبيد، وعلى خلاف الكثيرين مِن أهل «الفريق» تؤمن إيماناً لا يحيد بأنَّ ما تقوم به المرأتان بيد الشيطان وعلى أزقة السحر الأسود أينما تحلان أو تمضيان، وتؤكد أنَّ ابنها يستطيع أنْ ينكح نساء الحي كلهن وينجب منهن إن استطاعت أنْ تفك عنه هذا السحر الأسود اللعين .. ثم تمشي بين الناس تطلق اتهاماتها التي لا تنتهي وهي تزبد وترعد صارخة: «كجرنك الملعونات يا جناي .. العاقر وأم العاقر اتفقن عليك .. الله يلعنن فِي القبل الأربعة».

صدَّق أهل بيت نور الدائم شيخ العطارين والأصدقاء المقربون مِن أهل الفريق ما جرى على لسان الضيين بت الهميم، وأوصوها وأوصوه بأنْ يطلقها فربما ينفك عنه هذا السحر الأسود .. وذهب بعضهم إلى أنَّ هذا السحر مِنْ عمل ملك الجان والكجور الساكن فِي البيت المهجور خلف قوز التمساح بالقرب مِنْ حوش مقابر المدينة .. ويتساءل الشامتون عنْ صحة ما يقال فلا يجدون إجابة تشفي الغليل .. وخابت مساعيهم فِي معرفة سبب «العُنَّة» الحقيقي .. لمْ يتعاطفوا مع الدُّخري أبداً .. لكنهم سعوا سعي الحثيث إلى إيقاد شرارة الغضب والحقد المكبوتين ضده.

أصاب سالمة أم العُشاري المبروك بعض اليقين بخطأ ابنها هذه المرة .. فلا بطن فطين شال العروس التي يدعيها ولا بطن الجودلية شال الولد الذي يأمل أبوه فِيه .. سنتان ونصف السنة مضت على زواج الدُّخري مِنْ فطين وستة شهورٍ مضت على زواجه مِن الجودلية .. لمْ تنجح المرأتان فِيما أنيط لهما مِنْ وظائف النساء .. تمتمت قائلة: «الحمد لله .. المره دي ما جات معاك يا المبروك .. وبطن فطين ما شايل شي» .. فوجئت برد حاسم مِنْ صغيرها: «أنا ما كضاب يمه .. بطن فطين شايل عروسي» .. فوجئت بوجوده وهزها رده الحاسم ..

حرصت على تهدئته ومسحت بيدها على شعره ثم ضمته إليها .. أحست بجسده يرتجف على غير العادة .. كانت تعلم أنَّه لا يرتجف إلا إنْ كان هناك حدث جلل سيحدث قريباً .. تضمه بحنان .. لكنه لا يستجيب .. سألته: «ما لك يا ولدي؟» .. لمْ يجبها لكن زاد ارتجافه .. وتدافعت حبات العرق بشدة كأنها أنهار ترجو مصبها .. أصابها خوف شديد على ابنها .. لا تزال تذكر نفس هذه الحالة التي ظهرت قبل عودة أبيه مِنْ مهجره .. يومها صرخ وهو فِي هذه الحال: «أبوي جايي يوم الجمعة قبل الصلاة» .. حينها تعجبت وانتهرته .. كانت تعتقد أنَّه يهرف .. لكنه ظل يردد ذلك بإصرارٍ وعنادٍ شديدين .. وكان صادقاً وعاد أبوه يوم الجمعة التي تلي تلك

الحادثة وقبل صلاتها .. والأغرب أنه لمْ ير والده قط منذ ولادته لأنه رحل عنهم قبلها .. وأنَّه لا يُعرف موعد صلاة الجمعة حتى ينسب إليها عودة أبيه.

وحين أطل الصباح مِن الغد وتسكعت أشعة الشمس فِي أزقة «الفريق» ترسل نور ربها، وسالمة تقلب ثمرات الطماطم بدكان حميدان الخضرجي الذي يبحلق فِي جسدها الممشوق رغم أنف الفقر والحرمان بنظراتٍ مشتهية، سمع كل مَنْ فِي دكان الخضار صوت الضبيين بت الهميم ينطلق مِنْ بعيد، تتبعه زغاريد ليس فِيها شيء مِن الفرح ولا مِن الحزن، وهي تصرخ بصوتٍ عالٍ أجش: «زغردن يا نسوان الفريق .. زغردن يا بنات نور الدائم .. آي زغردن .. خلاص طلقه .. الشيطانة بت الشيطانة .. وبكرة الجودلية تحبل وبتجيب لي الدُّخري الولد الما قدرت تجيبو بت الناظر العاقر .. خلاص السحر اتحرق .. ولدي المسحور شفا».

وانطوت الأيام ثقيلة بعد طلاق فطين على بيت الناظر كُله .. وأم الدخري تمشي بين الناس بالإساءة إليهم تريد أنْ تثأر لابنها مِنْهم ومِنْ عُنَّته .. والجودلية لا تكاد تمسك فرحتها عليها .. بل سعت وأهلها إلى إعلانها فذبحوا الشياه والعجول والإبل .. وسالمة لا تدري أتفرح لخيبة ابنها فِي قراءة المستقبل والعروس التي لنْ تجيئ أبداً .. أم تحزن لطلاق صديقتها فطين بت الناظر وما يصيبها وأهلها مِنْ

لسان بت الهميم السليط .. نظرت إلى ابنها فإذا به يرتجف مرة أخرى والعرق يتصبب مِنْ جسده كله كأنه رجل فِي الأربعين .. بسملت وحوقلت وكبرت ثم جرت ناحيته فزعة .. وسألته قائلة: «ما لك يا ولدي؟» .. نظر إليها بعينٍ دامعة وأجابها بصوتٍ كسير: «خالتي فطين عيانة» .. ربتت على كتفه وقد أحست ببعض الراحة وقالت تصححه: «تقصد .. زعلانة .. مش كده» .. نظر إليها فِي حدة: «لا يمه .. عيانة فِي بطنها .. عروسي بالت فِيها .. وخالتي فطين قاعدة تطرش» .. أحست بالأرض تميد تحت قدميها .. وأصابها فزع شديد .. تناولت ثوباً لفته فِي غير عناية حولها وسحبت العُشاري المبروك مِنْ يده .. واتجهت به صوب بيت الناظر .. طرقت الباب بلا تردد .. شعرت به يهز يده .. نظرت إليه .. فقال: «خالتي فطين عارفانا جايين نشوفه» .. احتوتها الدهشة لكن لمْ يكن لها متسع مِن الوقت لتتحدث إليه .. فقد فتحت الخادمة الباب .. ولاحظت بأنَّ وجهها يكسوه السعادة .. أذنت لهما بالدخول .. ولجا إلى بهو البيت .. فرحة عامرة تبدو على مُحيّا فطين وأمها .. وما إنْ رأت فطين المبروك حتى جرت ناحيته وهي تصرخ وتضمه إلى صدرها: «كنته عارفة إنك جاي .. أنا شايلة عروسك».

(3)

• **يأخي** إنت لو ما خايف على نفسك .. خاف على أمك .. هي ما عندها غيرك .. منعت نفسها مِنْ متع الدنيا كلها .. أبوك طفش خلاها براها عشان تواجه الدنيا بدون سند .. وإنت من عمرك خمسة سنين متعلق ليك بي واحدة قبل ما تجي الدنيا وقبل ما تشوفه .. أبوها طلق أمها قبل ما تخش الضيقة دي .. أبوها راجل فقر وغدار يا العُشاري .. وكان ختاك فِي رأسه بكتلك .. ولا أمها ولا جدها الناظرح يقدروا يعملو ليه حاجة ..

افتر ثغر المبروك عن ابتسامةٍ رائعة، وهو يسمع لكلام صاحبه زكريا الكباشي .. يحس بخوفه عليه وبصدق إيمانه بما يقول، أجابه وهو يدرك أنَّ كلماته لنْ تشفي صاحبه:

• خلي تكالك على الله .. العُمر واحد والرب واحد .. والزول فِي الفانية دي بعيش مرة واحدة وبموت مرة واحدة ..

نشأ العُشاري المبروك ذكي القلب، نافذ البصيرة، عظيم الأدب، فِيه وسامة الرجل الوقور رغم صغر سنه، كان ماهراً فِي تثمير علاقة

الإنسان بأخيه الأنسان، عاش بين أهل «فريق بير الشيخ» وما جاوره مِنْ «فرقان المدينة» كاليتيم، فقد هجر أبوه أمه قبل ولادته ولمْ يرجع إلى «الفريق» غير مرة واحدة .. تلك المرة الوحيدة التي تنبأ فِيها بعودته فِي يوم الجمعة .. بعدها رحل ثانيةً ولمْ يعد ولا أحد يعرف له مكاناً، ولا يعلم إنْ كان حياً أم ميتاً .. إلا العُشاري المبروك كان يؤكد يقيناً أنَّه حي فِي مكانٍ ما لمْ يستطع أنْ يحدده على وجه الدقة، ورث عن أبيه الذي لمْ يره منذ ولادته إلا مرةً واحدة مهنة النجارة، كان نجاراً ماهراً وبارعاً وفناناً فِي صنعته، أحبه الجميع إلا الدُّخري ود نور الدائم شيخ العطارين وأهل بيته خاصة زوجته الجودلية.

قيل فِي شأن ولادته الكثير .. هبط إلى الدنيا صامتاً بلا صراخ أو صخبٍ أو عويل، تقول الحاجة السُّرة الداية إنه كان ينظر إلى السماء بوجهٍ وضاء، وسبابته تشير بعلامة التوحيد، واستمر فِي صمته حتى آخر الصبا وأوائل الشباب إلا مِنْ قليل يوجب الكلام، كأنه يضن على الدنيا الجديدة بصياح لا طائل مِنْه، وحاك أخريات الكثير مِن الأساطير عنْ ولادته .. بعضها غشاه خيال الراويات وبعضه يحتوي على شيءٍ مِن الحقيقة، وتعاظم هذا الخلط بين الخيال والحقيقة حتى صعب التفريق بينهما، وكان أعظم ما يقال عنْ مهده وبعد أن أتمت أمه سالمة أربعين يوماً وأرادت أنْ تحمله إلى الشيخ ضو البيت الفقير أو الفكي ضو البيت كما يسميه أهل «الفريق» ليحجبه بأحجبة تدرأ

عنْه السوء، لكن أمراً عجباً قد حدث .. إذ كانت كلما حاولت أنْ تحمله ثقل عليها فلمْ تستطع .. فاستعانت على حمله ببعض الجارات، وما إنْ وصلن إلى مقصدهن حتى فزع الفكي ضو البيت فزعاً شديداً وبدا كأن قد مسه مس، بعدها لمْ ير أو يسمع أحدٌ عن الفكي ضو البيت أبداً، وأطلقت النسوة اللاتي حضرن الحادثة الكثير مِن الروايات وزدن عليها ما شاء الله لهن أنْ يزدن.

لا أحد يعلم عن أبيه الدسيس ود كبلو النجار شيئاً سوى أنَّ جده لأبيه سكن «الفريق» حتى مات ودفن فِي مقابر المدينة .. وكان جده نجاراً ولأجل صنعتهم عرفوا بعائلة النجار، أما أمه سالمة بت قسم السيد فهي مِنْ بنات «الفريق» .. أبوها قسم السيد ود دفع الله كان يعتاش مِنْ تجارة الخردوات، لكنها لمْ تثمر بالقدر الذي يُعلي مِنْ قدره وقدر عائلته الصغيرة بين أهل «الفريق» .. وحين ضاقت به الحياة انفصل عن أمها خديجة بت حاج الأمين إمام المسجد .. لمْ يزد تعليمها عنْ سنوات المدرسة الأولى .. تزوجت مِن الدسيس والد العُشاري بعد أنْ خطبها له أبوه فِي إحدى زياراته له .. وعاشا بعضاً مِن الوقت حملت فِيه بابنها الوحيد بعدها لمْ يرياه ولا تدري إنْ كان حيًّا أم ميتاً، إلا أنَّ ابنها المبروك يؤكد أنه حي يرزق ولكنه لا يستطيع أنْ يحدد مكانه.

كانت سالمة حديدية الطبع وعنيدة وصاحبة إرادة وإصرار مشفوع

بذكاء فطري، وتسبب هذا الخليط فِي دفعها إلى تطوير مهاراتها فِي التطريز والحياكة .. فذاع صيتها بين نساء «الفريق» وما جاوره، وساعدتها هذه المهارات فِي رعاية نفسها وابنها العُشاري المبروك وأمها خديجة بت حاج الأمين حتى وارتها الثرى، كانت على وضاعة نسبها وقدرها بين أهل «الفريق» ذات روح متوثبة الطموح وعزيزة النفس .. كان لتربيتها لابنها الوحيد ورعايتها لأمها حتى مماتها أثر عظيم فِي رفع مكانتها وسط النساء، لمْ تشق سالمة مِنْ هجر زوجها لها بقدر ما شقيت مِنْ خوفها على ابنهما الوحيد بسبب كراماته التي جعلت مِنْه مبروكاً بين أهل «الفريق» .. فزاد الحاقدون عليه والكارهون له بمثل ما زاد مريدوه ومحبوه.

عملت سالمة على تعليم ولدها شيئاً مِن القرآن يحفظه مِنْ كل عين لامة، وكل شيطان وهامة .. لكن العُشاري نهل مِنْه بأكثر مما كانت تريد .. حفظه سريعاً وجوَّده وعمل به .. وباركه الله بصوتٍ يجيد الترتيل ويأسر الشعور والأرواح .. وكان فِي هيئته أقرب إلى المتصوفة منه إلى شيوخ العمامة والجبة والقفطان، باراً بأمه لا يرفض لها طلباً ولا يخاطبها بغير اللائق مِن الكلام، وكان جهده فِي إرضائها أشق مِنْ جهده فِي إرضاء نفسه، كان واسع الأفق على جانبٍ عظيمٍ مِن النضج وصفاء القلب والنفس، وكان يفكر ألف مرة ثم يقطع مرة واحدة.

(4)

وقفت على مقربة مِن الدكان تُعاين اللافتة المائلة فِي غير نظام، وتمر على ما هو مكتوب عليها بنظرة لاهثة، تُتمتم باسم الدكان فِي همسٍ لذيذ: «كبلو للنجارة»، رفعت طرف ثوبها لتغطي بعض خصلات شعرها المتناثرة ثم تقدمت خطوات إلى داخل الدكان، بدت مشرقة الوجه مبتهجة النفس مبتسمة الثغر ومنبسطة الأسارير، حتى استحالت كلها إلى بدرٍ يمشي بين الناس، لكنها لمْ تكد تلج مِنْ بابه المنجرة حتى أنكر جاد الله ود عوض الكريم العامل فِي دكان النجارة وجودها فِيها، تغيرت سحنته كأنَّ أحلام الليل قد روعته، وتسكعت على وجهه أخلاطٌ مِن الدهشة والحيرة والغيظ والضيق فجعلت قوته تذهب عنْه شيئاً فشيئاً لولا أن أسرع إليه زميلا المنجرة فأسنداه وهو واجم لا يتحرك لسانه إلا ببعض كلمات يهمهم بها: «الجابك هنا شنو يا نجسة .. دار المبروك ما فيها مكانن ليك .. الله لا كسبك يا الفاجرة .. دايره تقبلي عليه .. الله يلعنك فِي القبل الأربعة». سمعت سُبابه لكنها أهملته ولمْ يبلغ قلبها ولا حدثت به نفسها ولمْ

يثر فِيها رغبةً للرد عليه أو رهبة للتهيب مِنْه، صانعتهم فِي دعةٍ وسعة وطمأنينة وفضلٍ مِن ابتسام فهي لمْ تأت إليه ولا مِن أجله، تجاوزت جاد الله مرتفعة الرأس إلى حيث يجلس زكريا الكباشي، وسألته فِي دلال:

• وين المبروك؟

أجابها دون أنْ ينظر إليها:

• مشى مغلق ود السكة يجيب شوية خشب محتاجنه ..

صمت برهة ثم أكمل وهو يتحرك باتجاه مدخل المنجرة وهو يبصق على الأرض:

• ممكن تجيه مرة تانية .. وكان مستعجلة أمشي ليه المغلق ..

أحست بشيءٍ مِن الإهانة والذل .. لا أحد يرحب بها هنا، حتى زكريا الكباشي صاحب المبروك نفسه لا يرغب فِي وجودها، ولكن لأجل عين تكرم ألف عين، ابتلعت إهانته وقالت:

• لا ما فِي داعي للمشي للمغلق .. بجيه مرة تانية .. بس ما تنسى قول ليه الرسن بت السبَّال جات الدكان .. عندي شغل عايزاه يشتغلو لي ..

لمْ يجبها .. فخرجت فِي هدوء ومضت حيث شاءت .. وأطلق زفرة ساخنة كأنه يريد أنْ يتخلص مِنْ شرها قبل أنْ يستفحل.

اقتعد زكريا الأرض وتسور جاد الله وزميلاه حوله دون أنْ ينبسوا

ببنت شفة، مسح بيده على شعر رأسه والحيرة تكاد تقتله فوقع زيارتها كان شديداً عليه، كأنْ فيالق الشر وشياطينه قد أسرجت خيلها لأمر لا طاقة لهم به، كان يحب صديقه المبروك ويخاف عليه مِنْ مثلها، ولكن للمبروك شأنٌ مع الناس يصعب معه تحديد وجهته أو تحجيمه، الأمر يتخذ أشكالاً وصوراً لا يستطيع عقله أنْ يتبينها أو يحدد لها رسماً .. تبدو مبتورة غامضة حار فِي معناها ولمْ يقدر أنْ يجد لها تفسيراً .. فكل تفسيراته بدت أضأل كثيراً مِن الحقيقة التي تحجبها الغفلة، سأل نفسه مهمهماً: «الملعونة دي دايرة مِنْ سيدي المبروك شنو؟ دي ما جاية هنا عايزة الخشب .. دي عايزة سيد الخشب .. الله يهدك يا بت الحرام .. الله يهدك!»، يعتقد جازماً أنَّ فتيات «الزقاق» مهما قيل عنْهن فهنَّ كالمرض المقيم على جسد «فريق بير الشيخ» والفرقان المجاورة لا يكاد يزول إلا ليعود.

سمعوا صوت العُشاري يطلب مساعدتهم، فهمُّوا إليه يسحبون ألواح الخشب مِنْ عربة الكارو إلى داخل المنجرة ويضعونها حيث يجب أنْ تكون، أحس العُشاري بأنَّ شيئاً ما قد أسدل ستاره الصفيق على ضياء وجوههم وسماحة أرواحهم، لمْ يتعجل خطوهم وآثر القصد والعافية فأغناهم شر السؤال، وقد حاول أربعتهم أنْ يفلتوا مِنْ صاحبهم حتى أعياهم الإفلات .. فتحدثت عيونهم المضطربة وسكتت ألسنتهم المرتجفة، كأنهم قد أجمعوا على ألا يحدثوه بشكاة

وألا ينبئوه بأمر زيارة ابنة إبليس لكنهم لمْ يستطيعوا، قال له زكريا:

• بت إبليس جات هنا تسأل منك ..

عرف قصده لكنه تجاوزه مستعوذاً ومستفسراً:

• أعوذ بالله .. بت إبليس دي منو كمان؟ والبجيبه هنا شنو؟

أسرع جاد الله يجيبه:

• بت إبليس دي يا سيدنا بنادوها بالرسن .. الرسن بت السبَّال .. ملعونة الزقاق .. قالت عندها شغل هنا وبتجي مرة تانية .. نحن كمان حنشتغل لي بنات الزقاق .. غايتو كان جات هنا مرة تانية أنا بحش ليها كرعينه .. رضيت يا سيدنا ولا أبيت ..

(5)

تأملت حالها بعد عشرين سنةٍ مضت على زواجها مِن الدُّخري ود نور الدائم شيخ العطارين بسوق المدينة .. تحس بأنَّ جمالها وشبابها قد سرقا فِي غفلة مِنْها .. ضاعت دقة قسمات وجهها وحلاوته ورقته .. وشحب لونها الخمري وهي تسلخ السنين نحو الأربعين فِي سرعةٍ لا تستطيع السيطرة عليها .. وبطنها يأبى أنْ يشيل مِن ابن شيخ العطارين رغم أنَّ مطلقته فطين بت الناظر قد رزقت مِنْه بنتاً غاية فِي الجمال بعد جهد سنتين وبضعة شهور .. لكن! بطنها استعصم بالعُقر عشرين سنة .. لا نفع فِيها دواء الطبيب ولا عطارة النسيب .. لا تعرف إنْ كانت مختلفة عنْ غيرها مِن النساء .. ولمْ تعلمْ عنْ علتها شيئاً ولا سبباً رغم كثرة العقاقير الطبية والبلدية التي كانت تتناولها .. وبِشْرِية بنت فطين تكبر أمامها ويتعلق بها قلب الدُّخري .. فهي غُرة عينه ورمز رجولته وأبوته .. غلبتها الغيرة وهي ترى حبه لابنته وشغفه بها يكبر ساعة بعد ساعة ويتعاظم يوماً بعد يوم .. تدرك أنه حاول ألف مرة أنْ يرد بت الناظر إليه مرة أخرى لكنها

رفضته .. وردته خائباً فما فعله وفعلته أمه وفعلته هي نفسها كان أعظم مِن أنْ يحتمل .. وبت الناظر عزيزة النفس ولا تُبرئ جراحها كلمات اعتذار.

تشكلت صور كثيرة مختلفة على مرآة خيالها لكنها جميعاً كانت صوراً شاحبةً وغامضة وغير محددة المعالم .. إلا صورة واحدة كانت تراوح مكانها واضحة أشد الوضوح .. عادت بها هذه الصورة إلى الوراء كثيراً حين علمت أنَّ فطين قد أنجبت طفلة حلوةً رائقة بعد بضعة شهورٍ مِنْ طلاقها مِن الدُّخري .. ثم سمعت عن الطفل الذي كان يضع يده على بطنها ويردد: «بطنك شايل عروسي» .. ظل الطفل يرددها حتى حين طال الزمان وتزوجها الدُّخري لتنجب له معتقداً فِي عقر فطين .. لكن صدق الطفل وكذب بطنها وخاب أمل زوجها فِيها عشرين سنة .. وهي لا تزال تذكر كيف أغرت الطفل وأمه أكثر مِنْ مرة .. وكيف أنَّها وضعت يده على بطنها وهي تسأله: «شوف عروسك فِي بطني» .. لنْ تنسى ردة فعله أبداً حين سحب يده فِي غضبٍ وضيق وقال فِي ثقةٍ وعنف: «كضابة .. عروسي ما عندك .. عنْد خالتي فطين .. بطنك ما بشيل» .. أحست حينها بقسوة كلماته وعنفها .. وخافت على نفسها خاصةً مِنْ تنبؤات الطفل الذي يقال إنه مبروك وصاحب كرامات .. أعادت محاولتها معه مرتين .. ولمْ يزد عنْ تأكيده بأنَّ بطنها لنْ يشيل.

تحاول قدر استطاعتها أنْ تسيطر على كراهيتها له .. وتميل إلى إرضائه لكنه لا يرضى بالترغيب ولا بالترهيب .. تريده أنْ يدعو لها لتنجب ولداً أو بنتاً .. وهي تعلم أنَّها تخطو خطوات حثيثة نحو اليأس الذي يصيب النساء .. وجسدها تنضب خصوبته رويداً رويدا .. فتفظعها هذه الحقيقة وتفزعها .. والمبروك معروف عنْه عِظم الكرامات، وهو الوحيد القادر على فعل المعجزات فِي «بير الشيخ» وما جاوره .. تأمل فِيه وجه النهار وتيأس مِنْه آخره .. وقد أسرعت بها أمها التاية بت تاج السر تاجر المحاصيل بزريبة العيش بعد أن أنهكتها علة العُقر حتى كادت أنْ تهلكها، ومرت بها على كل مَنْ سمعت بقدرته على كشف غمتها وحل محنتها لكنهما لمْ تنجحا فِي سعيهما إلى الإنجاب.

دخلت عليها خادمتها العجوز ست الجيل التي ربتها منذ الصغر وهي فِي هذا الحال مِن التيه، نظرت إليها بخبث وأرادت أنْ تملأ يدها مِنْ ذائب علتها وجامدها، وتأخذ ما يُغِل عليها مِنْ همها ويأسها فقالت فِي ود وحنان:

• مالك يا بت سيدي .. شايلة الفانية فوق راسك ..

نظرت إليها حائرة لا تعرف كيف ترد .. وافترت شفتاها عن ابتسامة باهتة .. وتمتمت بصوتٍ خفيض:

• أعمل شنو يعني .. جافلة وغزَو ليها كلاعيت

ضحكت ست الجيل حتى تجاوزت حدود اللائق مِن الأدب أمام سيدتها، وقالت:

• جبت الكلام ده مِنْ وين يا بت البحر .. تبري إتي مِن العايرة الأدوها سوط .. إتي بت الأشراف .. ما تقولي على نفسك كده ..

لمْ ترد عليها، بل أشاحت بوجهها عنْها ونفرت مِنْ بين مقلتيها دمعتان سخينتان، رأتها الخادمة فزادت مِن ابتسامها الخبيث، وأردفت:

• تِلصِق الطين ما ببقى نعلي .. والعادة درجا والكلام فِي سالفة..

نظرت لها باستغراب وسألتها مستفسرة:

• قاصدة شنو يعني؟

أجابتها بقسوة وخبث:

• يا بت سيدي .. إنتي شقيانة عشان الولادة .. وشايفة نفسك كبرتي وما شيلتي .. وخايفة تقطعي .. وحلك عارفاه فِي يد المبروك..

جفلت مِنْ مكانها وقد أنهكها الجهد وأضنتها العِلة وملأها الذعر وملكها الروع فأجهشت تبكي وتقول:

• المبروك القال لي بطنك ما بشيل .. ألقاه وين؟

لمعت عينا الخادمة وقالت وهي تضغط على حروف كلماتها حتى تكسبها المعاني التي تريدها:

• المبروك كان مسح على بطنك .. وعلى عُرانك .. البطن بشيل بدل المرة عشرة .. والعُران ما بقطع لغاية ما تفوتي الفانية ..

بدا عليها الغضب فأخذتها بالحزم والصرامة وانتهرتها حتى تحملها على الجادة، قائلة:

• لعنة الله عليك محل ما تقبلي .. وأعوذ بالله مِنْ عفن العبيد والخدم .. ماك خدوم .. وغير شغل السرارة ما بتعرفي .. ومتعودة على الرجال .. يهبشوك ويحكوا عُرانك .. يا هو ده الفضل .. الحُرة تخلي راجلن غريب يخت أيدو فوق جسمه ..

تجاوزت سبها وحزمها وصرامتها، ثم أردفت بخبثٍ مقيت:

• الغرقان فِي زبد البحر عشمان .. تمشي وتجي لي كلامي المابياهو .. إنْ درتي الولادة ما ليك إلا المبروك .. مِنْ شافع شَيّل بطن ضرتك .. وأهي ديك بتها بقت عروس .. و ..

لمْ تكمل حديثها، إنما استقبلت لطمة قوية غاضبة على وجهها أسالت مِنْه الدماء .. مسحت بطرفها بقع الدماء السائلة .. ثم افترت شفتاها عن ابتسامة باهتة .. وخرجت مِنْ غرفة سيدتها وهي تحس بأنَّها قد بذلت ما عليها مِن النصح وما عليها إلا أنْ تنتظر.

خارت قواها فجلست على طرف «العنقريب» .. لا تدري ماذا تفعل ولا ماذا تقول .. وكلمات خادمتها تصك مسامعها .. وتزيد مِن إحساسها بالذلة والهوان .. فشقت عليها نفسها .. صحيح أنها

تأمل فِي كرامات المبروك التي لا تنتهي .. لكنها لا تستطيع أنْ تفعل بنفسها كما تفعل السراري وتسمح لغريب عنْها أنْ يمسها وإنْ على سبيل التبرك .. لمْ تطب نفسها ولمْ يطمئن قلبها ولمْ يرض ضميرها بما حدثت به خادمتها .. فكل ما تأمل به «يشيل بطنها جناها» .. مِن الدُّخري ود نور الدائم .. حتى تكتمل أنوثتها وتصبح أماً .. وتسكت الشامتين الذين يطوفون بسيرتها بين بيوت الفريق ويميلون كل الميل إلى فطين بت الناظر وبنتها الفاتنة بِشْرِية .. بعد أنْ ولدت للدُّخري البنت الجميلة .. مسحت دموعها بطرف ثوبها .. ثم نظرت إلى حال الدار فإذا الضحى قد ارتفع.

(6)

اكتظ «الزقاق» بعددٍ كبيرٍ مِن الذكور الذين امتلأت أصواتهم فاصطفوا على أبواب صاحبات الرايات الحمراء ليفرغوا شيئاً مِنْ فحولتهم بعد جهد أسبوعٍ كاملٍ مِن العمل الشاق هنا أو هناك، وأميرات «الزقاق» وتوابعهن يأتين مِنْ كل حدبٍ وصوب .. يبعن الهوى وينفقن ساعات النهار وساعات الليل فِي المتعة نائمات على صدور الفحول أو يقظانات على دوران الكؤوس، لا يعرفن مَنْ مسهن أو مَنْ دنا منهن، والفحول يقبلون عليهن مذعنين مستكينين لا يدعون شيئاً يقدرون عليه إلا أتوه وتجنبوا ما يكرهن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، كأنَّهن مولاتهم وأميراتهم وإن إلى حين، والفحول يضمرون ما فِي قلوبهم متلذذين بإشباع أجسادهم وتذكر رعشات الهياج، والأميرات يضمرن فِي قلوبهن راضيات ومغتبطات أمام الفحول، حزينات وضائقات أمام أنفسهن، وللزقاق نظامه الذي لا يجب اختراقه، ففيه الأميرات والوزيرات والوصيفات وغيرهن مِن العامة والسابلة، وفِيه نوع لا هم مِن الرجال ولا مِن النساء،

يعيشون كالنساء فِي أجساد الرجال، راضين بما قسم لهم مِن الحياة، وهؤلاء وأولئك يروحون على زقاقهم بالطاعة والرضا والحزن واليأس، يقومون دونه ما أضاءت ساعات النهار، ويسهرون عليه ما أظلمت ساعات الليل.

مِنْ بيوت الزقاق كان بيت الرسن بت السبَّال .. كانت داراً متواضعة لكنها ليست فقيرة ولا حقيرة .. وقد اختصت بأعظم ما يختص به دور أميرات الرايات الحمراء، عُرفت باسم «بيت الرسن» .. وكانت فِيه ملكة لا أميرة .. لكنها لمْ تكن تديره .. كأنَّها لا تنتمي إليه أو تملكه .. تركت أمر إدارته إلى الأم الكبيرة .. الشهيرة بالخالة «الرتينة بت الكُع» .. لكنها كانت تقف بصرامة فِي أمر اختيار مقدمات ومقدمي المتعة إلى زبائنها، ولها خصائص لا بدّ أنْ تراعى عند اختيارهن أو اختيارهم، وكانت الخالة الرتينة بت الكُع تخلص فِي خدمتها وخدمة الزبائن وتقوم على إدارة البيت أحسن القيام وأرفقه، تديره وتثمره كأحسن ما يكون التدبير والتثمير، لا تستثني فِي ذلك أحداً حتى الملكة الرسن بت السبَّال نفسها، رغم ما تكنه لها مِن الحب والإكبار، وتحفظ لها منزلتها كملكة وملكة لها مِن الجمال ما لمْ تختص به حتى حرائر النساء، وكانت الدار على وضاعتها واسعة تحتوي على العديد مِن الغرف الحمراء وصالات استقبال الضيوف وكبار القوم فِي المدينة كُلها، ويعيش فِي هذه الدار ويعمل

عشر مِن أميرات المتعة الجميلات، تقودهن الرسن نفسها، وأربعة مِن المثليين يأتي فِي مقدمتهم «خميس القرمبع» بخفة دمه المعهودة وتركيبته الجسمانية اللدنة الأقرب إلى النساء مِنْها إلى الرجال، ثم بعض الخادمات اللائي يقمنْ على خدمة الضيوف الكبار ونظافة الدار دون أنْ يشاركنهم أو يشاركن الأميرات المتعة والهياج.

أقبلت الرسن بت السبَّال على حياة المجون والمتعة مدفوعة برغبتها اللا محدودة في الرجال .. البعض يعزو ذلك لرفضها الختان وهروبها مِن أسرتها بسببه .. فهامت فِي المدن والفرقان .. تعمل خادمة مرة وتسرق مرة .. ماضية حياتها فِي الاضطراب والقلق .. وما إنْ شعرت بأنوثتها حتى أحست بحاجتها إلى أنْ تأنس إلى الرجال، لكنها لمْ تجد وسيلة سوى أجسادهم تتنقل بينها لا تدري متى تشبع .. ثم حط بها الرحال فِي «الزقاق» .. فبنت بيتها الشهير وسلمت إدارته للخالة الرتينة بت الكُع وقررت ألا تسلم جسدها لرجلٍ مِن أجل المال .. لكنها تسلمه حين ترغب أنْ ترضي شيطان رغبتها .. وسارت بينهم سيرة الملكة لا سيرة البغي .. وكانت تحدثهم حديث السيدة المستعلية إلى العبيد والإماء ..الذين تملك مِن أمرهم كل شيء.

وتمضي الأيام والأسابيع والشهور وهي ماضية فِي حياتها فِي بيتها بزقاق المتعة إلى أنْ سمعت عنْ كرامات العُشاري المبروك، فحدثت نفسها بأملٍ قريبٍ أو بعيد، وسعت سعي الحثيث إلى أنْ تطوي

المسافات والآماد بينهما عله يرفق بها وينظر مِنْها يوماً نظرة الرجل إلى الأنثى، لكنها أدركت أنَّ هذا أمر يمكن أنْ ترقى إليه الآمال والأحلام لا الحقائق والوقائع، فضلاً أنْ ترتقي إليه القلوب أو تلتقي فِيه الأجساد، استحالت الصلة بينهما إلى غير ما تريد وترغب، فهي تعشقه بجنون، وهو تائه فِي ملكوت الكرامات ومساعدة الناس حتى ظنت به الغرور والكبرياء، أو حتى التيه والغباء، كانت تحس بقلبها يكاد ينخلع مِنْ بين أضالعه حين تراه، وترغب فِي أنْ تبتسم حينها فيرد شفتيها عن الابتسام فضل مِنْ حياء، كانت تخاف أنْ يفسد وجودها فِي سوق المتعة كبائعة هوى مكانتها عنده ويحول بينها وبينه إلى الأبد، فضاقت بحياتها وأصابها السأم وجعلت لا تُحس شيئاً إلا أنكرته.

لمْ تحس باقتعاد خميس القرمبع على الأرض تحت قدميها وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى، ومضى وقت طويل وهي فِي شرودها وهو فِي مقعده مِن الأرض لا ينبس ببنت شفة حتى مرت عليهما الخالة «الرتينة بت الكُع» فرأتهما على ما هما عليه، فصرخت قائلة وهي تضرب على صدرها:

• سجمي! مالكم قاعدين كده زي السعانين؟

جفلت الرسن عنْ مكانها لكنها سرعان ما استعادت نفسها وهي تسمع ضحكات خميس، فانتهرته قائلة:

• المقعدك تحتي شنو يا ود الكلب ..

لمْ يتضايق مما قالته .. لكنه وجه حديثه للخالة الرتينة قائلا بصوته اللين الأقرب إلى أصوات النساء:

• .. عليك الله يا خالة اقعدي معانا .. أنا حالة خيتي الرسن دي ما عاجباني ..

انتظرها حتى جلست بجانب الرسن، فأردف:

• يا مرة إنتي مما شفتي الراجل الدرويش ده وحالك مقلوب .. مالك وماله .. ده ما زولنا .. حتى الرجال الكبار البجونا هنا عافيتيهم .. ما فيهم واحد داخل مزاجك ولا شنو؟ بالطريقة دي أحسن نقفل .. ونشوف لينه شغلة تانية .. أحسن تبعدي مِن الدرويش ده .. و ..

انتهرته وقد جن جنونها:

• أسكت يا ملعون .. ما فضل إلا النيين يتكلموا عن أسيادهم .. أوعه تجيب سيرتو تاني فِي خشمك العفن ده ..

مرة ثانية لمْ يأبه لما تقول، بل استمر يقول:

• ما بسكت يا بت أمي .. الدرويش ده ما بعاين ليك .. أنا بعرفو مِنْ زمان .. مِن أيام ما كان بعوم معانا فِي «قصاد بير الشيخ» ونحن صغار .. يعوم اليوم كلو ويطلع نشفان لا بتبل ولا هدومه بتنبل .. مِنْ زمان بكرهه .. ولمن كبرنا خلا ود السروجية يتوب

وعالجه مِن الدودة العنده وخلاني أنا زي ما أنا ..

تمتمت قائلة بصوت خفيض ودموعها تسيل بلا انقطاع:

• أنا كمان عايزة أتوب .. بس يعرسني شهر واحد أشيل منو .. ويطلقني .. ويمشي لي حاله .. وبعدها أتوب وما فِي راجل يدخل علي تاني ..

ضحك بأعلى صوته، وقال:

• تتوبي؟ وكمان عايزة تشيلي مِن الدرويش ده .. تتوبي مرة واحدة .. سمح يا الغبيانه هو البضوقو بتوب منو تاني .. ما سمعتي رجال الهمباتة الصحي صحي الودتهم الحيكومة العُمرة عشان يتوبوا قالوا شنو عنها ..

قهقهت الرتينة وسألته:

• قالوا شنو يا الممسوخ .. الله يكفينا شر محنك .. بقيت تعرف قول الرجال كمان ..

قال:

• الحيكومة نادتهم وقالت ليهم يا جماعة الهمبتة دي حرام .. وإنتو رجال ما فيكم قول .. عشان كده لازم تتوبوا .. عشان السرقة تنتهي وتخلوا الناس الباقين كمان يتوبوا .. المهم لقطتهم واحد واحد وودتهم العمره .. بعد ما عمروا قالوا يزوروا مدينة الرسول ..

تمتمن قائلات:

• .. عليه الصلاة والسلام ..

استمر قائلاً:

• أها وهم فِي الطريق شافوا ليهم البل .. وقفو يعاينو ليها .. واحد فيهم قال: .. والله أكان ما البحر ده .. كان الالبل ديل باتن فِي دار البلال ..

ضحكت الرتينة حتى سعلت، وقالت بين سعلتين:

• الله يلعنك يا الممسوخ ..

أكمل قائلاً:

• يا خالة وعِيها .. الدرويش ما بعرسها .. ولا بركبه بالحرام .. الدرويش عاشق بِشْرِية بت الدُّخري ود نور الدائم .. وبت فطين بت الناظر .. الدرويش هو الوحيد القال بطن أمها شايل ..

ثم تركهما وذهب إلى حاله.

(7)

أقبل الجيران ليشهدوا ما كان عليه بيت حامد ود العركي الصايغ مِن الفرح، وليبادلوهم الزغاريد والرقص والحمد أيضاً، إذ جُمع بما سُرق مِنْه مِنْ ثروةٍ عظيمة مِن الذهب الخام والمصوغات الذهبية والفضية بعد كسر دكانه بشارع الصاغة فِي سوق المدينة الكبير، وقد مسه الكثير مما يكره بسبب هذه السرقة، وأخذ الابتسام يسعى فِي الوجوه ويُظهِر فِيها شيئاً مِن الرضا والأمان، كأنَّ الفرح قد استرد شيئاً مِن القوة مِن أجلهم لينفعهم بها ويغِل عليهم وتعينهم على نائبات الزمان، وثابوا إلى شيءٍ مِن الطمأنينة والهدوء فأسلموا أنفسهم إلى الحياة بلا دموع أو نحيب، وسعى صاحب الدار إلى إرضاء جيرانه وضيوفه فأولم لهم وذبح عجلاً سميناً تبركاً وحمداً وقرباناً، ثم جلس بينهم وقال يحدث الرجال، والنساء يسترقن السمع:

• .. الحمد لله .. ربنا جمعنا بمالنا بعد سرقوهوا السراريق .. حق الحلال ما بضيع تب .. الحمد لله ولا حول إلا بالله ..

قال أحدهم:

• الحمد لي الله .. إلا السواه ليك المبروك ما ساهل .. حلمك بي محله .. وإنت نايم .. والله أكان ما المبروك تكوس لي يوم الدين ما تلم فيه .. أحمد ربك وأشكر العُشاري ود سالمة .. ده رحمة الفريق .. الحمد لله .. الحمد لله ..

لكزه أحدهم ليسكت لكنه انتهره وأردف:

• .. مالك يا وليد صفية بت جار الله لاكزني .. فِي شنو؟ مِنْ يومكم ما بتدورا النصيحة .. أبقوا عشرة على المبروك .. وأدوهوا حقه ..

بهت حامد ود العركي الصايغ وانعقد لسانه وجلس واجماً لفترة مِن الزمن لا يقول شيئاً، يردد طرفيه الحائرين بين جيرانه وضيوفه، ثم داهمه شيءٌ مِن الضيق بدا واضحاً ولمْ يدر ماذا يصنع ولا كيف يرد .. لكن نفسه امتلأت بشيءٍ ما يحسه ولا يتبينه، لملمها إليه ورسم ابتسامة بلا معنى، وقال غير مصدقٍ ما يقول:

• صحي والله .. الفضل بعد الله سبحانه وتعالى يرجع للعُشاري ود سالمة .. الله يطول فِي عُمره .. راجل ما ساهل تب ..

قال محدثه فِي جرأة غير عادية كأنه يريد أنْ يستل مِنْه شيئاً:

• راجل بس .. ده ولي عديل مِن أولياء الله الصالحين .. ما تلفوا وتدوروا.. والله كان ما هو الفريق ده كان راح شمار فِي مرقة ..

أحكي يا شيخنا .. أحكي وقولنا .. المبروك ده حلَّمَك كيف بي مكان الدهب ..

لمْ يدر صاحب الدار أطال صمته الحائر أم قصر، لكنه ظل يحكي لهم حتى انصرفت الشمس إلى مغاربها عنْ حكاية سرقة ماله وكسر دكانه، وأنَّه لما لمْ تفده الشرطة قرر البحث عنْ ماله عبر أولياء الله الصالحين، لكن لمْ يفلح أحدهم فِي الوصول إليه، وأنَّه لمْ يكن يؤمن بالعُشاري وما يحكى عنْ كراماته إلى أنْ حدثه بسرقة دكانه فلمْ يزد فِي قوله: «إنْ شاء الله خير» .. ثم كانت ليلة الجمعة الماضية فرآه فِي المنام يرتجف ويتصبب عرقاً كأنَّه مصاب بالحُمى .. ثم دله على المكان الذي أُخفِي فِيه الذهب والمصوغات واشترط عليه ألا يحدث أحداً بالمكان الذي كشفه له سوى ولديه .. ورفض أنْ يدله على الفاعلين .. وسأله سترهم وأنْ يغفر لهم خطيئتهم .. فرضي بشرطه .. ثم أخذ معه ولديه العركي وصابر إلى حيث دلهم فوجدوا المال فِي المكان حيث أشار.

أخذ الجيران والضيوف يحكون ما يعرفون عن المبروك مِنْ كرامات .. فهذا يحكي عنْ سباحته فِي البحر والقصاد دون أنْ يبتل أو تبتل ملابسه، ويروي آخر عنْ كيف أنه كان سبباً فِي أنْ يشيل بطن فطين بت الناظر وأنه منع بطن الجودلية بت كروم مِن الإنجاب .. ويقص آخر عنْ كرامة حضرها فِي شارع المغالق .. حين أراد المبروك أنْ

يشتري خشباً لمنجرته .. فنقص ما عنده مِنْ مال بضع جنيهات لكن صاحب المغلق رفض أنْ يقرضه الخشب .. فتركه ومشى فإذا بالخشب يطير مِنْ مكانه ويأخذ مكانه على «الكارو» المنتظر خارج المغلق .. ثم خرجت يد مِن المقعد الخشبي الذي كان قد جلس عليه فِي المغلق وسلمت صاحبه ما تبقى مِنْ جنيهات .. وزاد آخر فِي أمر صلاته فقال إنه رآه يصلي المغرب ويرتل القرآن ورأى بعض الدواب تصلي خلفه وهي تدمع خشية وخشوعاً .. وأسرف آخر فِي كرامات الرجل ودعائه فِي المقابر وكيف أنَّه سمع الموتى يشكرونه ويحمدون الله على دعائه لهم .. وهكذا ذهبوا فِي كراماته ما ذهبوا فزادوا عليها شيئاً مِنْ خيالاتهم .. لكنهم لمْ يختلفوا على حبه لهم وللناس أجمعين.

(8)

تبسمت بِشرية بت فطين بت الناظر فرسمت على شفتيها تلك الابتسامة الرائعة التي تظهر نونيتيها، ثم استدارت لتملأ «كوز» الماء لأمها الجالسة قبالتها .. ولما اعتدلت لتناولها إياه أحست بها تنظر إليها فِي حمدٍ وإعجاب، لمْ يكن جمال بِشرية جمالاً أنثوياً عادياً .. بل كان ذلك النوع مِن الجمال الذي لا يمكن أنْ تنساه إنْ رأيته .. فيه صفاء وتجرد وسمو .. وفيه هدوء واطمئنان وثقة .. كأنَّه جمال الخلود .. كان جمالٌ لا يمكن وصفه ولا يمكن أنْ تلوكه الألسن .. كأنه قبس مِنْ نور يتنزل مِن السماء، سألتها أمها:

• بتريديهو يا بِشْرية؟ بتدوريه يعرسك؟

صعدت الدماء إلى وجهها فأسبغت عليه حُمرة قانية حارت فطين فِي تفسيرها .. أهي حُمرة خجل أم هي حُمرة ابتهاج؟ لكنها أحست بفطرة الأمومة بأنَّها فِي حاجةٍ إلى أنْ تأنس إلى حبيبها العُشاري المبروك .. وأنَّها تود لو استطاعت أنْ تطوي المسافات والآماد بينهما فيردها عنْه فضل مِنْ حياء .. لكن قلبها يعشقه ويحس بالغبطة

والفرح والرضا معه إنْ فِي الواقع أو الأحلام .. ولا مناص لها إلا بقبول هذه الحقيقة.

ابتلعت جرعة ماء، واستطردت وهي تحاول استعادت الماضي وجعلت تحكي لها كيف تنبأ العُشاري بحملها منذ يوم زواجها مِنْ والدها وحتى قبل أنْ يدخل بها .. بل كان يقول إنَّ ما يحمله بطني هي «عروسه» .. أي أنها أنثى وليست ذكراً .. لمْ يأبه أحدٌ لحديثه يومذاك .. ثم مضت الأيام والشهور ولمْ يحمل بطني شيئاً .. وبدأت المشاكل بيني وبين أبيك .. ثم فاقم الأمر زواجه مِن الجودلية .. وشاع بين الناس أمر عقري فطلقني .. بعدها علمت بأنني حامل بك ومِن المصادفات العجيبة أنَّ أول مَنْ زارنا كانت سالمة وابنها العُشاري .. يومها قال: «بطنك شال عروسي» .. ثم علمت مِن أمه أنه مَن اقترح عليها هذه الزيارة، وجعلت تحدثها عنْ كره الجودلية له واعتقادها بأنَّه مَنْ منعها مِن الإنجاب مِن أبيك، بل هي تؤمن بأنه يسلط عليهما الجن والشياطين حتى لا ينجبا؛ ليثأر لي بسبب طلاق أبيك لي .. قاطعتها سائلة:

• يُمه أبوي بوافق يعرسني لي العُشاري؟

أجابتها قائلة:

• أبوك راجل طيب .. وما عندو غيرك .. الخوف كله مِن الجودلية وأمها .. ديل ما بدورن الخير لي زول .. الله يكفينا شرهن ..

ابتسمت ثم سألت أمها:

• كنتي بتريديه يُمه؟

انهالت دموع غزار مِنْ عيني فطين بت الناظر، ولمْ تعرف بِشْرية أهي دموع الحزن والأسف أم هي دموع القهر والكدر، وهمت أمها أنْ تتكلم ولكن شيئا ما عقد لسانها، فأشاحت ببصرها عنْها وأطرقت إلى الأرض، وانصرفت المرأتان عنْ مكانهما ذاك حين أقبل المساء مِنْ ذلك اليوم، ولكنهما لمْ تعودا إلى حالهما الذي اعتادتاه، وهامت كل واحدة مِنْهما فِي مملكتها الخاصة التي صنعتها لأجل أنْ تعيش فِيها مع حبيبها وحدهما بلا رقيبٍ أو حسيب، لا يحسان جهداً ولا تعباً ولا حاجةٍ إلى النوم، وأنفقتا ليلتهما تلك لا يظلهما إلا سقوف العشق ولا تؤويهما إلا مضاجع الهوى، حتى إذا أطلقت الشمس أشعتها بإذن ربها مِن الغد عادتها الأم كأنها تريد أنْ تكمل الحديث الذي قطعتاه بالأمس، وأجابتها الأم فِي صوتٍ رقيق يضطرب اضطراباً خفيًّا:

• أبوك كان كل حياتي .. بريدو شديد وما قدرته أنساه .. الله يجازي اللي كان السبب .. لو كان عرف إني حامل بيك ما كان طلقني .. لكنه قدر الله يا بنيتي .. والطلاق ده زي الموت .. الله لا ضوقو لحبيب ..

سألتها قائلة:

• لكن يمه إنتي أبيتي ترجعي ليه .. رغم إنو كان عاوز يرجعك ليه تاني ..

أجابتها بصوتٍ خفيضٍ باكٍ:

• ما كان ممكن أرجع .. غلطة أبوك كانت سماعه لكلام أمه وضرتي الجودلية .. لمن عرس مرته التانية ما زعلته منه .. وسامحته .. وتمنيت ليهو الجنى وإنه ربنا يقدره على فتح البيتين .. لكن أبوك بقى لا يحتمل لما تأخرت الولادة .. لا بطني شال ولا بطن الجودلية شال .. والناس بدو يقولوا العُقر منه .. أمه ما عجبه الكلام ده .. وافتكرت أنه الكلام ده طالع مِنْ بيت الناظر .. أبوك زعل وطلقني بلا سبب .. وأمه لفت الفريق بيت بيت .. تشتم فِي بيت الناظر وتقول الفينا والما فينا .. وبعدها عرفته إني حامل .. ورفضت الرجوع حتى بعد ولادتك .. ولما جيتي بت .. ده كان مِنْ حقي ما حق أبوك .. والحمد لله إنتي بقيتي عروسة .. وأبوك وحبوبتك وجدك هنا وهناك بحبوك .. إنْ شاء الله ربنا يتم ليك وتعرسي البدوريه ..

صمتت برهة ثم قالت:

• يعني يمه كان ولدتيني ولد كان رجعتي لأبوي طوالي .. أنا السبب يعني ..

ضمتها إلى صدرها وقالت:

• ده كلام الشرع ما عندنا فيه كلام .. لكن أنا كنت عارفه إنك بت .. ما قلت ليك العُشاري هو القال كده .. أكان بقيتي ولد .. حتعرسيه كيفين يعني ..

أسلست نفسها بعض الشيء وقالت:

• لكن يمه أبوي بوافق .. أنا خايفه .. أبوي ما بدور العُشاري .. بكرهه شديد ..

قاطعتها قائلة:

• أبوك ما بعرف يكره زول .. أبوك قلبه أبيض .. الجودلية مفهماه أنه العُشاري هو المانعه مِن الولادة .. ومسلط عليها شياطينه وشيخ الجن .. وهو بطيبته مصدق .. وطبعا وهو عارف أنه المبروك هو اللي قال فطين حتجيب عروسه ..

صمتت برهة ثم أردفت:

• ما تخافي تب .. لما يجي وقته .. زول بقيف قدامكم ما في .. والبيت كان وقع تاني ما في كلام .. والقسمة للصفاح تهز ..

ابتسمت فِي وجه أمها، واندست فِي حضنها ترجو دفْئها.

(9)

بدت الجودلية سقيمة ظاهرة الضُّر، كأنَّها أحست مِن الدنيا شراً ونُكراً، العُقم يمس جسدها وتعبث بها آلامه فِي حركة معقدة ونشاط متصل، كانت تحس بأنها مريضة مكدودة فأطلقت نفسها على السجية تسعى فِي بساطة مَنْ لا يريد أنْ يبذل جهداً لعلاج ما به مِنْ سقم وقد خالطها شيء مِن استسلام، لمْ يخطر ببالها يوماً أنَّها ستعيش بلا ولد ما دامت أنفاسها تسعى بين الشهيق والزفير، فذرفت دموعاً سخينة بلا طائل يرجى مِنْها، ولا اتزان، وسنوات العمر لا ترضى بالتسكع لكنها تسابق الريح إلى يأس المرأة دون أنْ تريم، بدت عليها علامات الزمان وهي تحفر بأزميلها على جمال النساء، ومالت إلى كل ما يشعرها بضياع أنوثتها، وظهر ذلك جلياً على اختلاف مسلكها عما اعتادت أن تسلكه فِي دارها، وغشاها مزيج عجيب متناقض مِن المشاعر .. فهي تحب زوجها الدُّخري ود نور الدائم شيخ العطارين حباً لا تستطيع أنْ تنكره، لكنها تكره ذكورته التي لا تستطيع أنْ تستفحلها كما تستفحل الإبل.

وكانت كراهيتها للعُشاري ود سالمة شعوراً طبيعياً كاستنشاقها

للهواء الذي تتنفسه، لا تجادل فِيه وقد منع عنْها الإنجاب حين قال لها: «بطنك ما بشيل»، لا تدري كيف أنَّ كلمة ما قالها طفل صغير تجعل مِنْه عدواً بغيضاً .. ربما بسبب ما يقال عنْ كراماته .. أو صدق نبوءاته خاصةً تلك التي ولدت بسببها بِشْرِية بت فطين بت الناظر، كان كل ما يصل إلى مسامعها عنه يؤكد أنَّه رجل مبروك أو ولي مِن أولياء الله الصالحين .. لكنه يرفض مساعدتها ويصر على أنَّ بطنها لنْ يشيل .. وقد عجز بطنها أنْ يشيل كل هذه السنوات فعلاً لا قولاً .. فاختلط الغضب والكراهية والحقد والحنق بدمائها فما قبلته قط إلا بأمل بعيد ورجاءٍ لنْ يكون.

سمعت طرقاً على باب الدار الخارجي فنادت على خادمتها العجوز ست الجيل لتفتح الباب وتعرف مَن الطارق .. وتأذن له فِي الدخول إنْ كان ممن يؤذن لهم بذلك، سمعت صوت أمها التاية بت تاج السر وخالتها ست النفر تسلمان على الخادمة .. ثم دخلتا عليها وهي فِي مجلسها ذاك فنهضت مرحبةً بهما قائلة:

• أهلاً بي بنات تاج السر .. اتفضلن .. ما فِي زول ..

تلفتت أمها وسألتها:

• راجلك وين؟

أجابتها قائلة:

• مسافر .. عندو شغل فِي دار بقارة .. قال عايز يشتغل شوية فِي

السعية .. يبيع فيهن ويشتري .. الله ينصره ويقويه ..

أشارت للخادمة بأنْ تقوم بواجب الضيافة .. فقدمت بعض الحلوى والخبيز وعصير المانجو المثلج، أحست بشيءٍ ما مِنْ نظرات أمها وخالتها المتبادلة .. سألتهما:

• فِي شيء يمه .. ما لكن تعيانن لي بعض زي كدايس المتابخ؟

اعتدلت خالتها .. وجرت نفساً عميقاً ثم قالت:

• سمعتي بالشيخة نصرة بت عجوبة؟

أجابتها:

• نصرة كودية الزار السكنت الفريق مِنْ ستة شهور كده .. آي سمعته بيها مالها .. ماتت ولا شنو؟

تفلت بعض لعابها عدة مرات ثم قالت:

• دستور يا سيادنا .. تبرا مِن الموت .. دي العندها الشفاء .. إنْ شاء الله تبقي ليك سبب للولادة ..

أحست بفرحة مؤقتة .. لكنها لملمت إليها نفسها .. ثم ضربت بيدها على صدرها ثم تنهدت وهي تقول:

• سجمي! أتعالج عند كودية الزار ..

صاحت بها أمها غاضبة:

• إنتي ما بتخافي مِن الأسياد يا بت .. شابكانا كودية زار .. كودية زار .. دي شيخة بتعرف كيف تتعامل مع الجن والشياطين الفاكيها

ود سالمة فِي جسمك ورابطك ورابط راجلك ومانعكم مِن الولادة .. دي شيخة مكملة سبعة علب .. فكي عديل كدة .. وراجله ذاته شيخ طريقة كمان ..

سمعوا الخادمة ست الجيل تضحك بصوتٍ عالٍ وهي تدخل عليهم بشيٍ مِنْ طعام، وقالت:

• إنتن جنيتن يا بنات تاج السر .. فِي فكي بركبوه كل ليلة خميس .. كان دايرات الولادة شوفن المبروك يمسح ليها بطنه وعرانه .. خليكن مِن الزار والكلام الفارغ .. قالن فكي .. فكي فِي عينكن .. الفكي أم فص ده ما سمعنا بيه إلا عندكن ..

ضحكت الضيفتان ضحكاً شديداً لكلام الخادمة العجوز كأنهما وجدتا فِيه تعزيةً ما، لكن الجودلية غضبت غضباً شديداً فانتهرتها قائلة:

• يا مرة يا مخرفة إنتي .. أنا ما قلت ليك ما تقولي كلام زي ده تاني .. الله يلعنك فِي القبل الأربعة .. مرة لسانه متبري منها ..

لمْ تنبس الخادمة ببنت شفة .. واتخذت مكاناً قصياً لتجلس فِيه وتسمع ما يقلنه دون أنْ تفوتها كلمة واحدة ، وجعلت التاية وست النفر يقنعان الجودلية بضرورة السماح للشيخة نصرة بعلاجها بالزار للسيطرة على الجان والشياطين التي يطلقها ود سالمة فِي جسدها ليمنعها مِن الإنجاب، وما زالتا عليها حتى وعدتهما أنْ تفكر فِي الأمر وتخبرهما بما وصلت إليه خلال أسبوع إنْ شاء الله.

(10)

لمْ يعرف «فريق بير الشيخ» أياماً كالأعياد كمثل أيام «زار الجودلية» .. أربعون يوماً مِنْ دق الدفوف والطبول .. فيهم سبع سمان وسبع عجاف .. واستقبلت معظم النساء حفلات الزار راضيات عنْها، مبتهجات بها، مطمئناتٍ إليها، تجري أمورهن فِيها على الدعة والإسماح .. واستقبلنها بعضهن بشيءٍ مِن الشدة والنُّكر .. وأخريات كيداً ومكراً وبغضاً .. وبعضهن ينتقلن فِيما بين الجميع بألوانٍ مِن البر والمعروف .. وقد عرفت «الفرقان» القاصية والدانية أمر «زار الجودلية» .. فصار حديث المدينة كلها .. وتناقلته الألسن بالحديث فزادوا عليه مدحاً مرات ونُكراً مرات .. وحكوا عنْه الحقائق والخيالات.

جلست الجودلية على «عنقريبها» العالي فِي «برندة» الحريم فِي دارها، وهي تلبس سروال الخواجة وتضع على رأسها «برنيطة» .. وتنفخ دخان سيجارتها هنا وهناك وتشكله كيف شاءت، وقد مسها دستوران لا تعرف الشيخة نصرة بت عجوبة كودية الزار

كيف اتفقا على التواجد فِي كائنٍ واحد .. فهي تارة الخواجة .. وتارة أخرى لولية الحبشية، ألقت نظرة إلى جاراتها اللائي جئن لزيارتها بعد انتهاء مراسم الزار .. فوجدنها فِي الحالة «الخواجية» ساعتئذ .. تناولت كأساً مِنْ «الويسكي» .. ورشفت مِنْه رشفتين ثم وضعته أمامها، وهي تغمض عينيها وتكز أسنانها .. وجعلت تهرف بكلام لمْ تعِ له معنًى .. فدست كل مِن الجارات وجهها بطرف ثوبها أوً أشاحت به بعيداً حتى لا تسمع الأخريات ضحكها أو مغالبتها لنفسها الضحك الذي لا يستطعن كتمانه .. رفعت طرفاً حريصاً مستطلعاً باتجاههن فرأت بطونهن تهتز كالمراجل والأتون بالضحك المكتوم .. فأدركت كيف صار حالها بينهن .. وكتمت فِي نفسها شيئاً ما.

دخلت عليهن التاية بت تاج السر وهي تفرك يديها كأنها تستغيث بهما مِن الحال الذي كنَّ فِيه .. كانت تحس بشيءٍ مِن الاضطراب لا تدري له سبباً .. وابنتها الجودلية لا تستطيع التخلص مِنْ سجن العُشاري ود سالمة كأنَّ جدران هذا السجن لا تهدم .. وقيوده لا تحطم .. ومال هذه الدساتير التي نزلت على جسد ابنتها لا تعالج علتها .. فقد مرت ثلاثة شهور دون أنْ يشيل بطنها رغم ما بذلته وزوجها مِنْ مال ووقت وجهد .. فلا الخواجة انتصر على ود سالمة ولا كيد لولية الحبشية قضى على لعنته .. واعجباه! حتى نصرة بت

عجوبة شيخة الزار لا تعرف سبب تأخر الحمل .. وبدأت تهرف بشيخ الجان وسلطان الشياطين الذي يسيطر عليه ود سالمة ويسلطه على ماء زوجها فيبطل مفعوله فِي بطن الجودلية .. وهذا ما لا يقدر عليه الخواجة ولا تستطيعه لولية، الوحيد الذي يستطيع منع شيخ الجان هو دستور الشيخ عبد القادر الجيلاني .. لذا لجأ ود سالمة لخداع الدساتير فألبسها دستورين غير فعالين.

طفقت نصرة بت عجوبة تنسج على هذا المنوال قصصاً وخواطر لا تُعد ولا تُحصى وهي تحاول أنْ ترمي بعلة العقم على المبروك .. وأنَّه أوقف كل محاولاتها لتمكين الجودلية مِن الولادة .. ومضت بين نساء الفريق تدس خيبتها وتوغر صدورهن ضده وضد فطين بت الناظر .. والنساء ينقلن إلى الرجال ما يقال .. فينقسمون بين مصدقٍ ومكذب .. كل حسب قربه أو بعده مِنْ بيت الدُّخري ود نور الدائم .. تغيرت فِي عيون أهل الفريق مظاهر الأشياء .. وقد اتخذ كل شيءٍ معنًى غير معناه .. وشاعت أحاديث شيخ الجان والدساتير على اختلافها بين أزقة «الفريق» .. تلهث تعباً أحياناً .. وتتصبب عرقاً أحياناً أخرى.

مضت أيام الجودلية منقسمة بين دستور الخواجة تارة، ودستور لولية الحبشية أخرى، وحفلات الزار ثالثة عسى أنْ يتلبسها الشيخ عبد القادر الجيلاني هذه المرة فيبطل عمل شيخ الجان ويتحرر ماء

زوجها ولا يتعفن فِي بطنها أو يعطب .. لمْ يكن لها غنى سوى هذه الآمال والأحلام تطلقها فِي الصباح والمساء كخطوات الخيل الصادحة .. فتُصرِّف حياتها على نحوٍ غريب.

أحست بيدٍ حانية تمسها، التفتت إليها فإذا خادمتها العجوز ست الجيل واقفة، نظرت إليها بحنان .. أحست بأنها تريد أنْ تقول شيئاً .. فأومأت برأسها، قالت:

• الخواجة ما بنفعك .. ولولية ما بتنفعك .. ولا الشيخ عبد القادر الجيلاني بنفعك .. علاجك عند ود سالمة .. المبروك عنده سر إلهي ..

صمتت قليلاً ثم أردفت:

• أسمعي كلام أمك العجوز .. كودية الزار ما بتعالجك .. وتاني بقول ليك ما في فكي بركبوه بالليل ..

أشاحت بوجهها عنْ خادمتها ذات اللسان الطويل .. ثم أرسلت دموعها فِي غير توقف.

(11)

مضت لحظات طوال وعمر ود مساعد يرقب مضيفهم الدُّخري وهما يجلسان على مائدة الغداء مع آخرين جاءوا لمعاودته فِي مرضه الأخير الذي اشتد عليه دون إنذار، وبدأ يفقد الكثير مِنْ وزنه دون سببٍ واضحٍ أو معرفةٍ بالحِمية وقوانينها، ويكثر مِن التبول رغم حرارة الجو وقسوة شمس الصيف وشدة التعرق، ويصيب أطرافه شيء مِن الخدر لا يعلم له مصدراً، بدا قلقاً على ابن عمه فالرجل يجلس بينهم مهموماً ودون أنْ يمد يده إلى أي طبقٍ مِن أطباق المائدة الغنية بما لذ وطاب، كأنَّ علته قد حولته إلى شبحٍ يقتعد الأرض بلا حراك، أدركته به شفقة عظيمة سيطرت على دخيلته وهيأته فحاول أنْ يرسم ابتسامة ما وقد تلاقت عيونهما بلا قصد فتعلقا بأذيال هذه النظرة كأنها أهداب الأمل، نهضا سوياً كأنَّما وخزتهما شوكة فِي الوقت نفسه، تناول عمر ود مساعد إبريق الماء ودعاه ليغسل يديه أولاً، ثم همس سائلاً:

• شايل الدنيا فوق راسك مالك يا ود عمي؟ بكره الدكاترة

يعرفوا الفيك .. ما تخاف .. خليها على الله ..

نظر إليه ابن عمه بعينٍ راجية لكنه لمْ ينبس ببنت شفه، فأردف قائلاً:

• شوف يا ود عمي .. المرض ده زكاة الجسم .. ابتلاء مِنْ رب العالمين .. وكان دكاترة البقعة ما نفعوا .. أمشي بره .. شوف أولاد الريف ولا شوف الخواجات ..

ابتسم وزاد بعد صمتٍ مداعباً:

• ما تمشي لي بلاد الخواجات .. وتلقى نسوانهم الزي السمنة البلدي ديل .. تقوم تجيب لينه معاك واحدة بترطن .. والله الجودلية توريك المكشن بلا بصل ..

عادا إلى حيث الآخرين .. وزعت أكواب الشاي بنكهة خليطٍ الحبهان والقرفة .. وأبخرة المستكة تنطلق مِنْ فوهاتها كأبخرة البراكين، سحب الدخري رشفة أتبعها بأخرى ثم التفت إلى ابن عمه قائلاً:

• يعني يا عمر يا ود عمي الواحد بعد الضغط .. المرة عالي ومرة واطي ده .. كمان نمرض تاني .. فجأة كده الواحد ينماص ولحمه وشحمه كله يروح شمار فِي مرقة .. يأخي الواحد بقى زي القشة .. والبول البي مناسبة وبدون مناسبة ده كرهنا العيشة .. الله يمرقنا مِن المرض الشين .. وكله كوم والألم التحت فِي المعسن ده كوم تاني

.. ألم قاسي خلاص ..

ضحك عمر ود مساعد وقال مداعباً:

• أفو! أفو! بتخاف مِن المرض يا ود عمي ولا مِن الموت ..

حاول أنْ يتجاوز مداعبته فنهض لضيافة زائريه، لكن ابن عمه أشار إليه برأسه ليجلس، وقال:

• سيبك منهم .. كل واحد فيهم حيقعد شوية ويقوم يمشي .. قول لي إنت مهموم مالك؟ ما كلنا مرضانين ..شايلنه ضغط وسكري وحارقين .. إنت مبشتن نفسك مالك؟

أجابه بصوتٍ حزين:

• يا عمر يأخوي حناخد زمنه وزمن غيرنا .. والله كل العايزه مِن الدنيا دي أعرس لي بِشْرِية بتي وأشوفه فوق بيته قبل ما يغطيني التراب ..

قال يشجعه:

• ما تخاف يا راجل .. إنْ شاء الله تعرس ليها وتشوف جديدة كمان يا راجل يا عجوز .. بكره يجيها ود الحلال إنْ شاء الله ..

نظر إليه نظرة ضائقة، وزفر زفرة ساخنة وقال:

• يجيها كيف ود الحلال؟ وود سالمة موقف حاله ..

(12)

استلقى على أرضية ديوان الرجال مسنداً رأسه على يده اليمنى ومتمدداً على ظهره، وأذيال الشمس الحمراء تتبعها فِي خجلٍ إلى مضجعها خلف الأفق، ظل ينظر إلى السقف وأنفاسه تعلو وتهبط بلا ضابط كأنَّه قد تسلق جبالاً شاهقة أو رأى غولاً مخيفاً .. وغمرته أخلاط مِن الحزن والهم والغم واليأس، الأفكار السوداء تعصف بدماغه وتحوم بين منعرجاتها كما يحوم السقاة والغلمان بين موائد الولائم، أمران أقضا مضجعه؛ مرضه المفاجئ وعلاقته بالمبروك، حتى الآن لمْ ينجح الطب ولا العطارة فِي معرفة سر مرضه، بعض الأطباء يرى أنَّه مصاب بداء السُّكري والبعض الآخر لا يستطيع أنْ يحدد سبباً لعلته، لمْ ينجح أطباء البُقعة ولا نظراؤهم فِي مصر الكنانة ولا أهل العيون الملونة خضراً وزرقاناً فِي معرفة الداء ووصف الدواء، والألم فِي منطقة الحوض يزداد قسوةً كل مرة يزوره فِيها خاصة حين يحاول الاقتراب مِنْ زوجته الجودلية .. فكان يهرب مِنْها قسراً.

أعياه أكثر حاله مِن المبروك .. إذ تتنازع عليه امرأتان لا يستطيع أنْ يحكم بينهما بالحق .. فالجودلية تكرهه لاعتقادها أنَّه المتسبب فِي عقمها منذ صغره .. وبِشْرِية تحبه وتعشقه ولا ترى غيره رجلاً يستحقها .. وهو لا يقدر على أي مِنْهما .. واجتمع مرضه على عقم الجودلية فأصبحت الحياة بينهما أمراً لا يطاق .. ساء مسلكها معه وهي تحس بقسوة العُقم عليها ومرارة نفوره مِنْها على السواء .. وضاعت آمالها فِي الإنجاب هباء منثوراً .. فلا بطنها يخصُب ولا زوجها يُشبِع .. وزاد على ذلك ما رشح على مسامعها مِن أمها ومِن كودية الزار وبعض نساء الفريق بأنَّ ود سالمة هو المتسبب فِي كل ذلك بتسليطه شيخ الجان عليهما ومنعها الإنجاب والتسبب فِي مرض زوجها بمرض حار الأطباء والعطارون فِي معرفة أسبابه .. زاد هذا مِنْ حنق زوجته عليه وعلى العُشاري على السواء .. وهو لا يدري كيف يرضيها ولا كيف يهون عليها أمرها ..

وبِشْرية لا ترى فِي ود سالمة ما تراه الجودلية .. لكنها تحبه حباً لا يمكن الوقوف أمامه .. وهو متنازع بين كرهه للعُشاري وامتنانه له .. يكاد يصدق حاله وحال الجودلية معه .. لكنه يعود ويذكر أنَّه كان سبباً فِي إنجابه لابنته الوحيدة رمز عزته ورجولته وذكورته .. حين كان يُصر بأنَّ بطن فطين شايل عروسه .. بل كانت حبلاً يربط بينه وبين أمها فطين بت الناظر التي أحبها حباً لمْ يستطع أنْ يقدم

مثله للجودلية نفسها ..

تمتم قائلاً:

• الله يغفر ليك يُمه ..

لا يزال ينظر بعينٍ حائرة إلى سقف ديوان الرجال .. لا يدري متى ترحمه أفكاره السوداء .. سحب سيجارة مِنْ صندوق سجائره .. حركها بين أصبعيه فترة وهو يفركها بلا ضغط شديد حتى لا تنكسر .. أشعلها وجعل ينفث دخانها ويشكله كيف شاء .. والدخان يصعد نحو السقف دون أنْ يأبه بنافخه .. ثم يتشكل فِي صورٍ مختلفة لا دلالة لها .. ثم يستقر على ملامح ود سالمة المبروك .. كأنَّه يسخر مِنْه ومِنْ حاله .. ومِنْ ترددِه بين كراهية زوجته وحب ابنته .. لمْ يدر إنْ كان مِن الواجب عليه أنْ يلعنه أم يشكره .. أم يسأله أنْ يشفيه ويشفي زوجته الجودلية ..

مرة ثانية تمتم كأنه يروِّح عنْ نفسه قائلاً:

• إت شِنْ سرك يا ود سالمة؟

أحس بخدر ساعده الذي يسند عليه رأسه .. فسحب وسادة كانت مسجاة على أحد الكراسي وضع رأسه عليها وهو يستجدي النُّعاس الهادئ .. أراد أنْ ينام حتى يحس ببعض الراحة أو ينسى لبعض الوقت .. لكن النوم امتنع عنه وجافاه .. وجعل يتقلب فِي مكانه ذات اليمين وذات اليسار يشحذ إغفاءةً لا ينالها .. حتى اقتنع

بأن النوم بعيد المنال .. فاعتدل وجلس ثم تمطى قليلاً .. ووضع رأسه بين كفيه ولبث على هذه الحال ردحاً مِن الزمان غير قليل .. لا شيء يشغل باله سوى حاله وحال المرأتين وسيطرة ود سالمة عليهم جميعاً ..

نهض ثائراً يريد فك أسره وتمتم قائلاً:

• الله يلعنك يا ود سالمة .. يا ملعون .. أبوك طشة مِن أمك الفقر دي قبل ولادتك .. وإنت مِنْ يومك الولدوك .. ركبك الجن الكلكي وطايح فينا شمال ويمين .. ما بعرسه ليك كان السماء ده انطبق علي الواطة ..

وخرج مِنْ ديوان الرجال هارباً مِن أفكاره السوداء وسيطرة المبروك عليها.

(13)

وضع خميس القرمبع بعض الجمر على «مبخر» وأضاف إليه خليط بخور التيهان، وشيئاً مِن البخور والعطور المستوردة مِنْ بلاد الهند والسند، كان قد اشتراها مِنْ دكان نور الدائم شيخ العطارين علها تساعدهم فِي فك «العمل» الذي أصابهم ومنع عنْهم بعض طلاب المتعة والمجون مِنْ ذوي الشأن .. وجعل يتمتم ببعض الرقى والتعاويذ التي نصحتهم بها الشيخة نصرة بت عجوبة هنا وهناك، ليطرد الجن المسلم الذي أرسله ود سالمة والذي سكن جسد الرسن بت السيال أجمل ملكات «الزقاق» .. فعافت بسببه الفحول أصحاب القوة والعِنِّينين أصحاب المال على السواء .. الدرويش أفسد حياتهم وحياة بت الرسن مِنْ رأسها إلى أخمص قدميها .. هي نفس أعراض التوبة التي بدت على ود السروجية حين عالجه مِنْ دودة الرجال .. وهي ذات الأعراض التي شاهدها على الكثيرين والكثيرات قبل أنْ يتوبوا .. يرسل لهم ود سالمة الجن المسلم .. فيتلبسهم إلى حين ويعافون المتعة والمجون ويتوبون ثم يضربون فِي

الأرض فِي أعمالٍ أخرى، لمْ يعد أيٌّ مِنْهم إلى «الزقاق» مرة أخرى ونجح بعضهم فِي تكوين عائلات جديدة لا تنتمي إليهم بأي صلة.

بينما يطوف خميس بمبخره فِي كل زوايا البيت وعلامات الضيق تبدو واضحة على وجهه، إذا به يلحظ جلوس الخالة الرتينة بت الكُع على مقعدٍ فِي أحد أركانه القصية، وقد أسندت خدها على كفها الأيسر، ومرفقها على فخذها الأيسر، وتلف طرحة خضراء على رأسها، وتغطي بطرفها جزءاً مِنْ وجهها كأنها تريد أنْ تخفي عن الناس شيئاً مِنْ تعابيره ومشاعره، قطع الممر الفاصل بينهما فِي همة عجيبة، وما إنْ دنا مِنْها حتى أرسل لها مِنْ عينيه الضيقتين نظرة مستنكرة فِيها شيء مِن الخبث، وفِيها دعوة خفية إلى الكلام .. لكنه سيطر على اندفاعه وعطل مشاعره حتى كاد أنْ يعود أدراجه، أحست بوجوده .. التفتت إليه دون أنْ تعبأ بِه .. وهمت بالإعراض عنْه إلا أنَّه سألها قائلاً:

• مالك قاعدة براك .. الله وحدِك تعدي فِي غنم إبليس ..

افترت شفتاها العجوزتان عن ابتسامةٍ كسلى، وأجابته قائلة:

• قِلَّة الشغلة يا خميس يا ولدي ..

صمتا قليلاً يناظران بعضهما، ثم أردفت:

• أدونا عين .. بعد ما كان البيت ما بفضى مِن الزباين .. بقى لما يدخل علينا زبون .. يجينا أب شهيق ..

مال ناحيتها قليلاً وهمس بصوت خفيض حتى لا يسمعه أحد:

• الدرويش كرهنا العيشة .. بقينا نشتهي ود إبليس فِي الحلم ما يجينا .. الواحد بقى ما بقلع سرواله إلا فِي الأدبخانة ..

علت ضحكاتها وقالت بين ضحكتين:

• البِنية عاشقة يا خميس .. والعِشق كتال ..

قال فِي ضيق:

• دي مجنونة فِي راسه .. مُوقِفه حالها وحال البيت فِي الفاضي .. الدرويش لا بعرسه فِي الحلال .. لا بركبه فِي الحرام .. اسألِيني منه أنا ..

حاولت أن تستفزه عله يُسري عنْها بعض الشيء، فسألته:

• إت بتعرفه مِنْ وين؟ يوم واحد ما شفتك معاه ..

أجابها بانفعال:

• بعرفه زي جوع بطني .. ده درويش .. زول الله بس .. وما ليه فِي النسوان .. وما بعرسه كان نطتت ..

قاطعته قائلة تريد استفزازه أكثر:

• ليه ما بعرسه؟ فِي أسمح مِن الرسن .. تقول للقمرة أنزلي وأنا أقعد محلك .. وجسم زي السيسبان .. نسوان الفريق كلهن يحسدوها عليه ..

نظر إليها مندهشاً ثم رفع حاجبه وغز راحة يده فِي خصره وقال:

• هوي يا خالة .. باين عليك خرفتي .. سمحة ما قلنا حاجة .. إلا العرس مِن الدرويش ما فِي ..

قاطعته عنْ قصد سائلة مرةً أخرى:

• ليه؟

أشار إليها وهو يحرك سبابته:

• هوي يا بت الكُع .. إت جنيتي؟ الدرويش مِنو البعرسه! يطرشني مِنْ قوة عينكن يا نسوان «الزقاق» .. الزول ما قلع سرواله فِي حرام قبال ده .. يجي يقلعه لي واحدة ما لابسه ليها سروال مِنْ بقت فتاة .. ده جن راسه عديل .. يمين الله ده جن راسه عديل .. سجمكن .. وبرِي منكن ..

صمت برهةً ثم أردف:

• أسمعيني يا خالة .. الكلام ده بودينا التوج .. وقلة الزباين حتخلي البنات ديل يفوتن لبيوت تانية .. الإشاعات مالية «الزقاق» .. والزباين بقولوا بيت الرسن مسكون بالجن المسلم .. والرجال خايفين مِن الجن المسلم ده .. لأنَّه كان شافهم عريانين بخصيهم .. كلمي حبيبتك دي ترجع الشغل عشان الخوف يطير ..

ارتعدت الرتينة بت الكُع لدى سماعها كلماته وتمتمت بكلام غير مفهوم وقد تملكها الخوف، فأكمل سائلاً:

• مالك زي النزل عليك سهم الله؟

أجابته وهي ترتعد:

• أمس سمعته كلام فِي السوق ما صدقته .. قالوا الدُّخري راجل الجودلية بقى يحوم فوق عنقريبها زي كلب الحر .. وما يقدر يسوي شي .. يقعد يبكي لي الصباح .. النسوان بقولن أنه ود سالمة مسلط عليه الشياطين عشان أبا يعرس ليه بت فطين .. إلا ما جابن سيرة الجن المسلم ده ..

ضرب صدره بكفه وقال:

• سجمنا .. كان الدُّخري رقد رز .. تاني إلا نشوف الرجال فِي النوم ..

نظر إلى مبخره فوجد ناره قد خمدت .. ترك الرتينة جالسة فِي مكانها .. وذهب يبحث عنْ بخورٍ جديد .. عل وعسى!

(14)

اكتحلت عيون الخالة الرتينة بت الكُع وخميس القرمبع وجواهر الحبشية بمراود الاستغراب والعجب، وزادت حيرتهم وهم يشاهدون الرسن بت السيال تدخل إلى البيت دون أنْ تنبس ببنت شفة وفِي يدها شيء مِنْ حطب الطلح اليمني والصندل الهندي المختوم كما يبدو مِنْ على البُعد، اتجهت إلى غرفتها دون أنْ تنتبه إلى وجودهم .. تبدو مشغولة بشيءٍ ما، لمْ يتحرك أي مِنْ ثلاثتهم كأنَّما قيدوا إلى الأرض بقيدٍ ثقيل، خرجت مِنْ غرفتها بعد أنْ بدلت ملابسها ولبست خيمة الدخان المصنوعة مِن أجود أنواع القطن، بدا كأنَّها قد مسحت جسدها بشيءٍ مما تفعله النساء، وكانت تحمل فِي يدها ثلاثة أو أربعة مِن الألواح الصغيرة مِنْ حطب الطلح الذي دخلت به منذ برهة، اتجهت أولاً إلى التُّكل تتبعها العيون المراقبة، صنعت شيئاً مِنْ عصير الليمون المثلج .. ثم أخذت كل أغراضها مع ثلاث جمرات إلى ركن قصي بعيداً عن أعين الزوار يسمونه حوش الدخان .. عاينت «الدَّكة» وفحصتها جيداً ثم وضعت حطب الطلح جانباً

.. وتناولت عصاً مِنْ تحت مقعد الدخان وحركت به قاع «الدَّكة» .. فرشت «النطو» وحاذت فتحته مع فتحة «الدَّكة» .. جلست على ركبتيها ثم وضعت لوحين أو ثلاثة رتبتهم بطريقة ما داخل حُفرة «الدَّكة» .. ووضعت فوقه الجمرات الثلاث وانتظرت حتى تصاعد الدخان المعطر ثم وضعت عليه لوحًا آخر حتى يغطيهم ويخفف مِنْ حرارة «الدَّكة» .. وسحبت مقعد الدخان واضعة إياه فوق الفتحة تماماً، وجلست عليه وهي تغطي جسدها كاملاً وما تحتها بالخيمة، وحاولت أنْ تسترخي.

تبادل ثلاثتهم نظرات فِيها خليط مِنْ حيرةٍ وذهول، سحبت جواهر سلة فاكهة غضة متنوعة وتناولت حبة مِنْ فاكهة الجوافة لكنها لمْ تدفع بها إلى فمها بل اتجهت بوجهها المليح شطر النافذة الأخرى لا تدري أتصدق عينيها أم تكذبهما، حاولت أنْ تنفك مِن أسرها فقالت بلهجتها المكادية المحببة:

• الليلة مزاجه رايق ..

رد عليها خميس القرمبع قائلاً:

• غايتو كان صدق الفي بالي إلا أتحزم ليكم فِي نص الزقاق .. الرسن دي ما براها .. دلكة .. وخمرة .. وفلير دمور .. وبت السودان .. وسُرتية .. وقلامور .. والصاروخ .. وصندل .. وكبرته ألف .. ده كله شان شنو؟ زباين «الزقاق"! إنتن جنيتن ..

صمت برهة، ثم استطرد موجهاً حديثه إلى الرتينة:

• يا خالة قومي رسي بتك دي ورسينا .. هو وينو الزباين البتكبرتوا ليهم قدر ده .. يا حليل الرجال البكسروا العناقريب .. طيرهم لينا ود سالمة الدرويش ..

سمع ثلاثتهم أنيناً يعلو مرةً وينخفض أخرى .. التفتوا إليه فإذا هو صادر مِنْ كلبة الدار «بابوية»، وهي تحاول فتح باب الدار فلا تستطيع، سأل خميس قائلاً:

• بابوية ماله الليلة .. الدخان هيجة ..

ضحكت الرتينة وأجابته:

• بابوية موبلة .. دايره الضكر ..

سمعوا كلباً فِي الخارج ينبح كأنه يناديها، فقال خميس:

• كلنا موبلين ولابسين بوبلين لينا شهور .. باين الدخان جاب لبابوية الزباين .. يمين الله إلا أفتح ليه الباب .. يمكن يكون كراعه خدرا .. حليلنا إحنا مِن الماتوا فِي هجليج والسافروا الخليج .. الله يلعنك يا الفي بالي .. نحن نطير وين؟

تركهما وهما يرقبانه، فتح الباب فإذا أحد الكلاب الضخمة ينسل ويتجاوزه عنوة، وإذا «بابوية» حفية به مشوقة إليه، وإذا هي تقف منه موقف القبول، وإذا هو يركبها وينفذ، والمرأتان تنقلان نظراتهما بين الكلبين المستمتعين بنفسيهما وخميس الذي ارتجف جسده حتى

كاد أنْ يقع، عاد إلى مجلسه والمرأتان تنظرانه، قال:

• شفتن الشيء ده .. يمين أموت عليه كافر شعرة جسمي كلبت .. الله يلعنك يا الفي بالي .. مالك علينه .. وقفته حالنا .. إن شاء الله ما يقيف ليك شيء كان سندته بشعبتين ..

(15)

أرسلت الشمس أشعتها الأولى لتقهر ظلام الليلة السابقة .. وأوشكت الساعة على الخامسة والنصف صباحاً أو نحوها .. كان الجو شديد البرودة على غير العادة .. لا يزال أهل الدار نياماً، خامدة أصواتهم .. حتى الخادمة العجوز ست الجيل ترقد على «عنقريبها» كأنها لا ترغب فِي إدراك صخب النهار .. والجودلية تتقلب فِي مرقدها منذ أنْ مددت جسدها عليه بعد عشاء الليلة الماضية .. تُعاني مِنْ قهر النفس ووسواس النساء اللذين لا ينتهيان .. وتأمل أنْ يبزغ صباح جديد بأملٍ جديد .. نهضت متكاسلة .. واتجهت لتستاك وتتوضأ .. ثم أدت ما عليها مِنْ نافلة وفريضة وما يلزمهما مِن الدعاء والاستغفار .. واتجهت إلى مطبخها لصنع برادٍ مِن الشاي الممزوج بحليب الأبقار .. أحست الخادمة ست الجيل بحركة سيدتها فنهضت وهي تتمتم ببعض أدعية الصحو الذي لا ترغب فِيه .. غابت لدقائق أمام «الحنفية» تغسل وجهها .. ودخلت المطبخ دون أنْ تُصلي وهي تعدل مِنْ وضع طرحتها علها تغطي

بياض الشعر الذي غشاه فِي فوضى غير خلاقة، وتركت طرفيها يتدليان فِي إهمال على عنقها القصير المجعد وعلى كتفيها .. وقع نظرها على سيدة الدار وهي تنظر إلى براد الشاي وهو يغلي دون أنْ تراه .. علمت أنَّها قد غادرت بأفكارها ومشاعرها المكان .. وأنَّها تتسكع بين الحكايات والقصص التي تملك عليها حياتها .. كأنَّها تنتظر معجزة لا تجيء أبداً .. أزاحتها عن الموقد، وقالت تنبهها:

• سلام يا بتي .. إنتي لسه نايمة .. الشاي ده فار ..

جفلت الجودلية مِنْ مكانها .. لكنها هدأت قليلاً حين رأت خادمتها .. ومالت قليلاً لتدعها تقوم بواجباتها اليومية .. وطفقت تحدق فِي الجدران والأرفف المعلقة عليها .. التي تعج بالغبار العالق منذ زمن .. أدركت حينها أنَّها فِي حاجة إلى خادمة صغيرة تساعد هذه العجوز التي ما عادت تستطيع عمل كل شيء .. سمعت صوت الأواني وهي تُغسل .. ثم سمعت صوت العجوز يناديها:

• هاك يا بتي الشاي .. ينفعك إنْ شاء الله ..

تناولت كوب الشاي وشيئاً مِنْ «الكعك» المسكر، وخرجت إلى برندة الحريم، وضعت كوب الشاي على طاولة أمام أحد العناقريب وعدلت فراش أحدهم واستلقت عليه مسندة مرفقها على الوسادة وخدها على كفها، وباليد الأخرى تناولت كوب الشاي وبدأت تحتسيه دون أنْ تحس له طعماً .. ثم أطلقت لأفكارها وتخيلاتها

العنان .. دارت بين أزقتها ودروبها فكانت جميعها تؤدي بها إلى جهةٍ واحدة .. شيخ الجن الذي سلطه ود سالمة على زوجها الدُّخري .. سألت نفسها فِي همس: «داير مننا شنو يا ود سالمة؟ منو المسلطك على الراجل ده؟ .. بقي يحوم فوق العنقريب الليل كله يشخر ساكت .. راحن عليه النسوان .. سويت ليه شنو شان ينسى سوات الرجال .. الله يلعنك فِي القبل الأربعة».

بدأت ست الجيل مشاغلها اليومية بالتنظيف ونفض الأتربة مِن الأثاث وفرش «العناقريب» بفرشٍ جديد وتنظيف وكنس برندة الحريم، لكن الجودلية لمْ تغب عنْ عينيها، فقد كانت ترقبها بعيني صقر، وكانت تتوقف بين الفينة والفينة لتتمطى وترتاح قليلاً مِن آلام المفاصل والظهر التي لا تفارقها طيلة النهار، حتى أصبح التوقف والتمطي يستغرقان مِن الوقت أكثر مما تستغرق أعمالها اليومية، فركت بظهر كفها فروة رأسها ثم عادت تكمل ما بدأت دون أنْ تترك مراقبتها للجودلية، لاحظت أنَّ سيدتها تتمتم ببعض كلماتٍ لمْ تتمكن مِنْ سماعها، فاجتهدت لتقترب مِنْها دون أن تلفت انتباهها، وأنفقت جهداً فِي الإنصات لكنها لمْ تسمع شيئاً، أصابها شيء مِن الضيق والحنق .. لمْ تستطع أنْ تشبع فضولها والجودلية تبدو مشغولة عنْها والصباح لا زال فِي أوله، اقتربت مِنْها وشدت ظهرها، ثم سألتها:

• مالك تبرطمي براك .. جنيتي ..

رفعت الجودلية رأسها بآلية، ثم رفعت حاجبها الأيسر وهمَّت بأنْ تقول شيئاً، لكن طرقاً على باب الدار منعها مِنْ ذلك، فقط أشارت إلى العجوز لتعرف مَنْ هذا الطارق الذي يجيئهم فِي هذا الصباح الباكر.

تهللت أسارير وجه الجودلية وهي ترى أمها تدخل عليها تحمل «قفةً» كبيرة مليئة بالخضروات واللحم، نهضت مِنْ مكانها لتستقبلها، أشبعت المرأتان جوع شوقهما، وتناولت ست الجيل «القفة» فِي تهكم واضح وسارعت بإدخالها إلى المطبخ وعادت سريعاً حتى لا يفوتها حديثهما، أخذت المرأتان خطوتين بطيئتين نحو «العناقريب» المفروشة بعناية .. وتمددتا عليها بينما تركت العجوز أعمالها وهي تلوي شفتيها، وجلست غير بعيدة مِنْهما حتى لا يفوتها شيء مما تقولان.

مضت المرأتان فِي حديثهما دون أنْ ينتبها إلى الأذنين المصغيتين .. والعجوز تضيق بهما وبحديثهما المعتاد الذي لا جديد فِيه، لكن حواسها انتبهت جميعاً وهي تسمع الجودلية تقول تهمس لأمها، قائلة:

• القصة طالت يُمه .. الراجل نسى سوات الرجال .. وأنا قربت أقطع .. وما عارفة أعمل ليه شنو .. بقيت أشحده مِنه شحده ..

بقى مما يشوفني فِي حفرة الدخان .. أو يشم ريحة الخُمرة .. يعمل فِيها رايح .. ولا يعمل فِيها عيان .. شي وجع راس .. وشي مغس فِي معسنه .. المغس الما لاقياه أنا يا يمه ..

صمتتا برهة أرهقت العجوز، لكن أمها قالت:

• يا بتي راجلك ده ود ناس لكنه مربوط .. ود سالمة رابطه .. شان أبا يعرس ليه بته بِشرِية بت فطين .. وقشيرة دي ذاته عاجباها حالته وساري باله فِي شان طلقه .. شان كده استحمليه شوية ..

تمتمت قائلة:

• كمان سوات الرجال فِيها ود ناس وما ود ناس يُمه .. كان عرسته الكشا مشا .. كان ولدي مشى .. مشى بس .. ده كان عرس وشلته جديده .. وبقيت حبوبة كمان ..

سكتت هنيهة ثم أكملت وقد مسها شيطان الغضب فجعلت تدعي عليه وهي ترفع يديها إلى السماء وتسُبه:

• الله يلعنك يا ود سالمة فِي القِبل الأربعة .. يا ملعون .. خاتي أبوك كان طفش مِنك ومِن أمك .. قشيرة بت القشير ..

وما إنْ سمعت ست الجيل شتيمتها للمبروك حتى صاحت بها محذرة:

• إت جنيتي يا بت .. والله اللي يسوي فيك لسانك ده إلا تابي .. اسمعي مني أنا المرة العجوز دي .. ما عندك ولادة بلا ود

سالمة الما بياهو ده .. كلامي الزمان يمشي ويجي .. تسوي زار .. تشتكي للحيكومة .. علاجك عند ود سالمة كان أبيتي كان رضيتي .. أقعدي سوي سواتك دي .. لمن تقطعي .. تاني إلا تشمي الولادة دي قدحة ..

انتبهتا إلى وجودها فأصابهما الفزع، وقبل أنْ ترد عليها أي مِنْهما أردفت تكمل حديثها وهي تشير إليهما بسبابتها:

• أسمعن يا بنات تاج السر .. ختن عقلكن فِي راسكن .. أمشن لي ود سالمة حنسنه يمسح ليك بطنك وعرانك .. ويمسح لي راجلك .. معسنه يمكن يكون في أيده الشفاء ..

ثم رفعت يديها تدعو لها قائلة:

• يلحقك يا الجودلية يا بت التاية .. يلحقك المبروك ود سالمة .. وتشيلي تيمان .. قادر الله على كل شي..

صرخت فِيها الجودلية بعد أنْ لملمت إليها نفسها قائلة:

• إطمي يا مرة يا قاهر .. أنا ما قلته ليك ما تنحشري فِي الما بخصك ..

غضبت العجوز وتركت لهما المكان، فأخذت أمها توبخها:

• مالك عليها .. هي ما قاصده شيتن شين .. ما تنسي المرة دي ربتك ..

قالت بحسم:

• كيفن يعني أسمع كلام زي ده؟ عايزاني أضحك ولا أسكت ليها .. كمان أمشي أحنس لي راجل شان يخت أيده فوق جسمي .. وهو ود سالمة ده ما عنده شغلة غير يحشر يده تحت سراويل الرجال والحريم .. حاجة تقرف ..

أجابتها وقد بدا أنَّ الفكرة قد راقت لها:

• أسمعي يا بتي .. دكاترة ومشينا .. عطارين ومشينا .. الزار بدل أسبوع دقيناه أربعين يوم .. وبدل المرة مرتين وتلاتة .. آخر حاجة الشيخة نصرة بت عجوبة غلبه عديل .. ورفعت يدها وقالت جن ود سالمة وشياطينه ما قدرت عليهم وخافت منهم عديل وفكت البيرق .. حتى راجلك بقى ما داير النسوان .. حتلدي كيف؟ العجوز دي ما قالت حاجة غلط .. مالو ما نسمع كلامه حتى لو خرفانة .. ما نجربه فارق معانا شنو .. على الأقل نعرف راسنا مِنْ رجلينا ..

عجبت لرأي أمها التي أنجبتها وضاقت به، لكنها لمْ تستطع أنْ تجيبها .. وضعت وجهها بين يديها كأنَّها تخفيه عن الوجود، جرت دمعة سخينة على خدها ثم علا نحيبها بلا توقف .. تمتمت تدعو فِي صوتٍ خفيض: «يا رب أفرجه مِنْ عندك .. إنت عالم بي حالنا».

(16)

وضع العُشاري «الفارة» جانباً على طاولة المنجرة، وأخذ يمسح بكفه على لوح الخشب يتحسس مدى نعومته، ليست كما يجب هكذا رآها.. تناولها مرة ثانية وكشط بها اللوح مرةً أو مرتين برقة فنان، وحين اطمأن لنعومته وضعه بجانب ألواح أخرى، تركه مكانه واتجه يريد الجلوس على «التبروقة» ليأخذ قسطاً مِن الراحة فِي نهارٍ شديد الحرارة رغم أنَّ الوقت شتاءٌ، استلقى على ظهره وحدق فِي سقف المنجرة والجدران .. وقعت عيناه على ثلاث لوحات معلقات، تحمل فِي جوفها سور الإخلاص والمعوذتين .. قرأهما فِي سره فأحس بشيءٍ مِن الراحة .. اعتدل فِي مقعده وتناول الإبريق وأخذ يتوضأ لصلاة العصر، ليؤدي الفرض الذي عليه وما يلزمه مِنْ واجب الدعاء.

أتم صلاته ودعاءه وذهب باتجاه «اللدايات» فِي الركن القريب مِنْ باب المنجرة ليصنع شيئاً مِنْ طعام له ولأصحابه وهو عمل يحبه ويستمتع به .. بدأ «يحش» البصل .. اقترب مِنْه زكريا الكباشي

وقال مداعباً:

• أهه .. غدانا أم تكشو .. ولا أم شعيفة ..

رسم ابتسامة راضية، وقال:

• لا والله .. حأعمل ليكم ملاح أم دقوقة .. وسلطة دكوة .. والكسرة جبتها مِن الصباح مِنْ ست النساء .. كمان تحلوا بالغباشة .. قصرته معاكم ..

أجابه جاد الله عوض الكريم وهو يقترب مِنْهما:

• حاشاك يا سيدنا .. إت ما بتقصر .. إلا كان خليتنا لزكريا ده بضوِّقنا العميوق غصب ..

ضحكا لحديثه لكن لمْ تكتمل ضحكاتهما لدخول الرسن بت السبَّال فِي معية خميس القرمبع إلى داخل المنجرة .. واختلطت روائح النساء بروائح الخشب والفحم المحترق بين اللدايات الثلاث .. وامتلأت أجواء المنجرة بأنفاس متباينة السخونة ومتصارعة لا تقبل إحداها الأخرى .. كأنها تعلن الحرب على بعضها البعض .. تمالك العُشاري نفسه وقال مرحباً:

• أهلاً .. اتفضلوا .. أي خدمه؟!

اقتربت الرسن مِنْه وقالت:

• بدورك فِي كلامن ما بدور زولن تاني يسمعه ..

صرخ زكريا مقاطعاً وبانفعالٍ شديد:

• اسمعي يا بت الناس .. ده مكان شغل .. عندك حاجة يشتغلوها ليك قولي إنت عايزة شنو .. نسوي ليك حاجتك وتمشي تتطلبي الله .. نحن هنا ما عندنا كلام سر ..

ربت العُشاري على كتفه وقال فِي هدوء:

• خليها على الله ..

رسمت ابتسامة مستفزة أضافت إلى جمالها المزيد مِن الجمال، وأحست بسطوتها على الجميع إلا العُشاري المبروك، تعلم أنَّها أنثي قادرة على فرض نفسها على الرجال .. لا أحد مِن أبناء آدم يستطيع أنْ يتحاشاها .. عدا هذا الذي تقصده .. تأمل فِيه .. تعشقه بجنون .. لكنها تهابه وتخاف أنْ تفقده .. انتحيا جانباً .. كان الجميع يراهما لكن لا أحد يسمع شيئاً .. تبادل الباقون النظرات وأحس خميس القرمبع بأنَّه غير مرحب به فِي هذا المكان، فحاول أنْ يبعد بضع خطوات باتجاه بوابة المنجرة الكبيرة دون أنْ تبعد مرافقته عنْ عينيه، أخرج زكريا الكباشي زفيراً ساخناً مِنْ رئتيه .. بدا غاضباً وعصبياً وشاركه جاد الله عوض الكريم الشعور .. والرسن تتحدث إلى المبروك وهو يسمعها خافضاً بصره .. الدقائق تمر والحديث لا يكمل .. وهي تتحدث وتتحدث دون انقطاع .. وهو يسمع ولا يقاطعها .. همس جاد الله فِي أذن زكريا قائلاً: «كان خليتوني بجيب لي محويب وأحويها ليكم فِي مخزن الخشب» .. كتم زكريا الكباشي

ضحكة اهتز لها بطنه المنتفخ وقال فِي صوتِ خفيض: «سمعته إنَّها عافت الرجال .. يمكن عيانة .. حمانا الله» .. وطفقا يشغلان أنفسهما ببعض الأعمال اللازمة بعيداً عن الضيفة والمضيف .. فجأة علا صوتها وبدا أنَّها غاضبة، بل شديدة الغضب .. لمْ يسمعا شيئاً لكنهما شاهدا وجهاً حازماً للعُشاري .. وجهًا يعرفونه جيداً ويدركون معانيه .. أدركا بحس العشرة بينهم بأنَّ الحديث بين صاحبهم وضيفته قد انتهى إلى شيءٍ لا يرتضيه .. وأنَّها قد تجاوزت شيئاً لا يدركانه .. لكنه أضاع جهودها التي مِن أجلها جاءت .. ولمْ تمض دقائق معدودة حتى سمع الجميع بكاءها .. وشاهدوها وهي تتجه ناحيتهم محاولة أنْ تخفي دموعها المنهمرة بلا كابح، خرجت الرسن مِن المنجرة يتبعها خميس القرمبع .. واتجه الرجلان إلى صاحبهما يسألانه الأمر.. التقاهما بابتسامة هادئة وأجابهما قائلاً:

• المطرة لما تنزل ما بتشاور بيوت الطين .. الله يكفينا شرها ..

سألاه بصوت واحد:

• العفين دي عايزة منك شنو ..

أجابهما:

• عايزه العرس .. جات شان تخطبني لي رقبته ..

صرخ جاد الله عوض الكريم:

• بت «الزقاق» ..

وتبعه زكريا الكباشي غاضباً:

• الملعونة دي ما بتخجل .. جاية وجايبة معاها النبي ده عشان تشحدك العرس .. الله يلعنه محل ما تقبل .. ده والله آخر الزمن .. النسوان بقوا يسكوا الرجال ويقابضوهم فِي الأسواق كمان .. عليكم الله دي ما علامات الساعة ذاته .. استغفر الله مِنْ بنات حواء..

خرجت الرسن باكية تحاول أنْ تلملم نفسها وخميس القرمبع يحاول أنْ يعرف ما بها .. أو ماذا دفع بها إلى هذه الحالة دون جدوى .. وهي تبكي وتكاد تجري فِي الشارع العام .. والناس يتبادلون النظرات ويهمسون لبعضهم البعض .. وصلا «الزقاق» بعد جهدٍ شديد .. دفعت الباب بعنف أقلق الساكنين والزوار على قلتهم .. شاهدتها الرتينة على هذا الحال السيئ .. فأمسكت بها تسألها:

• مالك؟ الحصل ليك شنو؟ جاية مِنْ برة غرقانة فِي دموعك ..

أفلتت منها وهربت إلى غرفتها .. حاولت أنْ تغلق الباب عليها إلا أن الخالة الرتينة بت الكُع منعتها .. وسألتها برفق:

• يا بتي مالك؟

ارتمت على صدرها وقد زاد نحيبها، دخل عليهما خميس القرمبع فسألته الرتينة:

• ماله البت دي يا ولد؟

أجابها:

• يمين أتحاسب عليه يوم الموقف العظيم ما عارف .. كانت بتتكلم فِي امانة الله مع ود سالمة .. فجأة جاته شحتفت روح وقعدت تبكي ..

عقدت الخالة الرتينة بت الكُع حاجبيها .. وزمت شفتيها ووجهت حديثها للرسن قائلة:

• يعني سويتي الفي راسك ومشيتي ليه .. راسك قوي وما بتسمعي الكلام .. أهه قاليك شنو ود سالمة؟

أجابتها:

• أباني .. أباني تب ..

قالت كأنها تؤنبها:

• يعني إنتي دايراه يقول ليك شبيك لبيك أنا بين إيديك .. جيت لأمك ..

تدخل خميس قائلاً:

• أنا زمان شن قلته .. الزول ده ما عنده أي علاقة بالنسوان .. ده زول الله .. ما عنده غير بِشرِية بت فطين ..

صرخت فِي وجهه قائلة وقد زادها:

• أطلع برة يا حمار .. أنا ما ناقصاك ..

غمزت له الخالة الرتينة بطرف عينها فانسحب فِي هدوء، وعملت

على تهدئتها حتى أسلست نفسها، وتمددت على «العنقريب» الكبير، وقالت لها:

• أخدي ليك نومة عشان تريحي أعصابك .. إلا أخديها مِني نصيحة .. الأباكي غبشة ما تتمسحي عشانه ..

خرجت وأغلقت الباب خلفها.

(17)

• **خلاص** ما فِي مشكلة إنتو عاودوا القفا .. وأكان فاطِني نِفسَت برسلكم .. عقبان أبقو صادين .. ما تخافوا .. الله كريم ما بتجيها عوجة ..

هكذا صاح جاد الله عوض الكريم بجماعته المسافرة إلى البلد .. بعد أنْ زاروه ليعودوا زوجته فاطمة بت محمد الحسن ود الرضي المريضة، وهي على وشك أنْ تضع مولودها الجديد بعد أربع بنات .. وتركوا معها أمها خوفاً عليها مِنْ حُمى النفاس .. يأمل جاد الله فِي طفلٍ ذكر يُعَصِّمُ بناته إن أخذ الله وديعته يوماً ما .. اتجه بعدها إلى المنجرة ليبدأ يومه الجديد كعادته .. بدا مهموماً وخائفاً مِن أنثى خامسة .. دلف بحاله هذه إلى المنجرة .. لمْ يحيّ مَنْ فيها، لاحظ زكريا الكباشي انشغال صاحبه فداعبه قائلاً:

• السلام عليكم .. تغيت ولا لقيت .. شان نسابتك معاك يعني .. عافي مِنك يا فاطني .. لجمتيه تب ..

ابتسم على مضض، ورد تحيته:

• وعليكم السلام والرحمة .. معليش .. يا دوب سافروا .. الجماعة قفاهم أعوج .. إلا ما ده المكدرني ..

اقترب مِنْه وسأله:

• نان المكدرك شنو؟ بكرة المرة تقوم بالسلامة .. وتجيب ليك الولد الساكيه ده ..

فرت دمعة مِنْ عينيه، قال مردداً المشيئة:

• إنْ شاء الله .. إن شاء الله ..

صاح به:

• إت خايف مِن أمر الله تبقي بت .. هسة بناتك مالن .. حلات الدنيا فيهن .. ما شاء الله .. يسدن عين الشمس ..

ابتسم قسراً، وقال:

• الحمد لله .. البجيبه الله كله كويس ..

سمعا صوت العُشاري خلفهما يسأله:

• أهه .. حتسميه علي والدك عوض الكريم .. ولا المرة حتقدر عليك وتسميه محمد الحسن ..

التفتا إليه، وردد جاد الله كلماته الأخيرة:

• البجيبه الله كله كويس ..

صاح بِه زكريا:

• إت بقيت عنبلوق .. المبروك ببشرك بي الوِليد يا الغبيان ..

لمْ يصدق ما سمعه مِنْ صاحبه، وجعل ينقل بصره بين زكريا والمبروك .. فإذا ابتسامة رائقة على شفتي العُشاري المبروك .. وإذا وجهه يضيء كالقمر ليلة تمامه .. لمْ يصدق ما يراه .. اندفع إلى المبروك يحتضنه ويقبله .. وجعل يصرخ وهو يبكي:

• فاطني شايلة ولد .. الله يبارك فيك يا سيدنا .. أكان ولد بسميه العُشاري المبروك ..

ضمه إليه فِي حنان، وقال:

• لا .. لا .. سميه عوض الكريم ..

مسح دموعه بطرف جلبابه وقال:

• العاوزه كله ببقى يا سيدنا ..

قال له بعد أنْ دس شيئاً فِي جيبه:

• أمشي البيت ارتاح باقي النهار .. وبشر فاطني وأمها .. ربنا يجعله ليكم سند وبيكم بار .. ويبارك فيه دنيا وآخرة ..

خرج جاد الله عوض الكريم وهو لا يكاد يصدق أنَّه بُشر بالولد بعد أربع إناث .. والتفت زكريا إلى صاحبه ممتناً كأنه مَنْ بُشر بالولد .. أمسك بيد العُشاري وأجلسه على التبروقة، وقال:

• عندي كلام حاقص لي ومورم فشفاشي كل ما أجي أقول ليك أرجع لي ورا .. إلا الليلة عايز أصل حده ..

أجابه:

• أبشر ..

قال:

• «الفريق» كله جاضي بالكلام الشايلاه نصرة بت عجوبة مِنْ بيت لي بيت .. أت صحي مسلط شيخ الجن وشياطينه على الدُّخري ود نور الدايم شان ما عرس ليك بته؟ قالت للناس الراجل أبى مرته الجودلية تب .. بقى مِنْ يشوفه فِي حُفرة الدخان يعافه عديل ..

صمت هنيهة نظر فيها إلى صاحبه ليرى ما أحدثته كلماته مِن أثر، وأردف:

• وأزيدك مِن الشعر بيت .. الود النِي خميس القرمبع .. بيقول إنك مسلط عليهم جن مسلم مما يشوف الراجل عريان طوالي بخصيه .. تاني بي شِعبه ما بقيف .. وده كله شان عايز الرسن لي رقبتك .. ما داير زولن يركبه معاك .. الكلام ده صحي؟

ابتسم فِي وداعة، وسأله:

• سيبك مِنْ قول ناس الفريق وناس الزقاق .. إت شن قولك؟

أحس بحرج موقفه مِنْ صاحبه فجعل يردد هامساً: «لساني ده الله يكفيني شره».

(18)

اقتربت المرأة الملثمة مِنْ دار العُشاري ود سالمة، كان الوقت ساعة صلاة العشاء، والإمام يقيم الصلاة فِي الزاوية القريبة مِنْه، وقفت أمام باب الدار مترددة تتلفت يُمنة ويسرى .. لكنها توكلت على الذي لا يموت أبداً وطرقته بهدوء .. كأنَّها تأمل ألا يستجيب لطرقها أحدٌ مِن أهله .. تشعر باستياءٍ شديد لوجودها فِي هذا الوقت مِن الليل فِي الشارع العام لزيارة سالمة وولدها .. الوقت متأخر لكن الأمر ضروري لا يمكن تأخيره .. تنظر باتجاه «الزاوية» .. لا تريد أنْ تنتظر أمام الباب إلى أنْ تنتهي صلاة العشاء فيخرج المصلون ويتعرفوا عليها .. تسمع تلاوة الإمام وقد أنهى الركعة الأولى .. كانت أمور كثيرة تدور فِي رأسها، طرقت الباب مرة أخرى .. سمعت سالمة تنادي سائلة:

• مِنو الفي الباب؟

أجابتها بصوتٍ خفيض .. وقد أحست ببعض الراحة:

• دي أنا .. التاية بت تاج السر ..

انتظرت لحظات وهي تتلفت مخافة أنْ يراها الناس، فتحت سالمة

الباب نصف فتحة كانت كافية لتتمكن التاية بت تاج السر مِن الدخول إلى «حوش» الدار .. كشفت عنْ وجهها، وقالت:

• سلام يا سالمة .. معليش جيتكم فِي وقت متأخر وما مناسب .. لكن جاية واقعه ليك فِي الواطة .. إنتي وولدك المبروك .. وشاحده الله تسمعوني ..

ابتسمت سالمة فِي لطف، وقالت مرحبة:

• سلام التاية .. البيت بيتك .. نحن أهل .. خشي لي جوة .. العُشاري فِي الزاوية .. هسي بجي .. إنْ شاء الله خير ..

دخلتا إلى حوش الحريم .. أجلستها على أحد العناقريب الثلاثة المفروشة .. ثم استأذنتها لبضع دقائق وعادت تحمل كوبين مِنْ عصير الليمون المثلج وضعتهما أمامها ودعتها لتناول العصير .. تناولت أحدهما فقد كانت عطشى ولا تستطيع احتمال الظمأ أكثر مِنْ ذلك .. وبعد أن أفرغت نصفه فِي جوفها .. وضعته أمامها على الطاولة .. وكادت أنْ تتجشأ لولا أنَّها تذكرت مكانتها بين نساء «الفريق» .. وقالت تحدث مضيفتها لتشبع فضولها وتساؤلاتها التي تكاد تتجاوز حدود عينيها:

• جيت واقعة ليكم فِي الواطة .. بتي الجودلية روحه فِي الولادة .. ولغاية هسه الله ما أذن .. بندور دعوة المبروك وعلاجه .. الراجل قالوا مربوط .. مسلطين عليه شيخ الجن أبو عين قزاز .. وقالوا ..

قاطعتها وهي ترسم ابتسامة معاتبة:

• التاية يأختي .. أنا عارفة البتقال فِي «الفريق» .. والجودلية كلامه واصلني وما فايت أضاني .. إنتي صحي جاية شان المبروك ولدي .. لكن كلامك ما ياهو الفي بطنك .. ولدي ما رابط الدُّخري ود الضيين بت الهميم .. ولا مانع بتك مِن الولادة .. إلا القسمة هِي السبب ..

أصابتها خيبة أمل عظيمة أحست بأنَّها انكسرت وألا أمل فِي وجودها، لكن سالمة لمْ تتركها لأوهامها وقالت:

• والله يا التاية يأختي .. المبروك مظلوم .. وعشان أفرحك بجي هسة مِن الصلاة وبكلمه ليك فِي قدامك .. والفيه الخير يقدمه الله ..

أحست بأنَّ الدنيا لا تكاد تتسع لفرحتها .. نهضت إليها وضمتها إليها .. وأرسلتا نهراً مِنْ دموع النساء التي لا تتوقف إنْ فِي الحزن أو الفرح، قالت:

• الله يبارك فيك وفِي وليدك .. والله يديه الفي مراده ويعرس بِشرِية بت فطين ..

صمتت قليلاً ثم أردفت:

• بس ما بقدر أنتظره .. الوقت إتأخر .. أخير النقوم أمشي .. جيتكم مبلمة .. ومارقة مبلمة .. الله يصبحنا بخير وبجيك صادة تاني .. بس إنت كلميه .. الله يرحم والديك ..

ودعتها وخرجت تتدثر بظلام الليل والفرحة تملأ حشاشاتها.

(19)

ضجت شوارع سوق المدينة ومقاهيها ومحلاتها التجارية بما فعله العُشاري برجال الشيخة نصرة بت عجوبة كودية الزار وكلابها الذين أرسلتهم لتأديبه، بعد أنْ فضح زيفها وغشها للناس بأساليبٍ مختلفة، وأعمال الدجل والشعوذة التي كانت تجريها لاستنزافهم، وحار أهل السوق فِي أمر العُشاري الذي غلب خمسة رجال وعشرة كلاب .. وأخذ كل يدلي بدلوه .. وليس مَنْ رأى كمن سمع .. إذ قال محمود ود الصارقيل .. وهو رجل قصير القامة فِيه سِمنة وقد تجاوز ثلاثينيات عمره .. وهو يمسح على صلعته بمنديل لا يفارقه أبداً .. وكان يجلس مع أصحابه فِي أحد مقاهي السوق:

• علي الطلاق السواه المبروك إلا شغل أولياء ساكت .. خمسة رجال وعشره كلاب خلاهم يلفوا صينية .. ده ما شغل رجاله .. ولا شغل دواس .. ده شغل رجال الله فِي الدنيا الفانية دي .. الزول ده قطع شك مبروك .. والله حارسه .. يأخي الراجل فيهم زي الحيطة .. المبروك يعاين لي ساكت يقعد يكورك .. ويتمرمرق فوق الواطة زي العندو صرعة .. لا والكلاب .. جات هاجمه عليه .. بس عاين لي واحد فِيهم

شديد .. كان قامت عليه باقي الكلاب .. قطعته حتة حتة ..

سكت لحظة يلتقط فِيها أنفاسه وكر قائلاً:

• الجماعة قاموا جارين .. راجل فرت واحد خلاهم يفروا .. هعع .. أمانة ماك نجيض .. تسلم البطن الجابتك .. يا المبروك .. تاني تجوا يا أولاد الكلب .. هعع .. هعع ..

سأله أحدهم:

• إت شفتهم يا محمود؟

أجابه بفخر:

• آي .. شفتهم وشفت تفتهم .. تفاهم البلاء .. بعيني ديل الحياكلهم الدود ..

سأله مرة أخرى بخبث:

• هسة الرجال ديل كان قصدوك إت بتقيفلهم زي المبروك؟

نظر إليه باحتقار وهو يسمع ضحكات الآخرين عليه:

• يمين أتحاسب عليه يوم القيامة .. ديل كان جوني فِي الحلم إلا أصحى وأفنجل عيوني وأصنقر فِي نص العنقريب .. أنا مِن الله خلقني ما شفته لي ناس زي ديل .. الواحد طول فِي عرض .. حيطة بس ..

سأله آخر:

• إلا قالوا المبروك لحقهم وعرف إنه رسلتهم الشيخة نصرة كودية

الزار؟ الكلام ده بالصح ولا كلامن ساكت ..

أجابه بثقة:

• أنا الشفته حكيته ليكم .. إلا هو لحقهم ولا ما لحقهم ما عارف..

ومشى حديث محمود ود الصارقيل وأحاديث أخرى مشابهة بين بيوت أهل «فريق بير الشيخ» و"الفرقان» المجاورة كما تمشي «الدلاليات» بينهم .. كل يبيع بضاعته كما شاء وكيف شاء .. لكنها جميعاً اتفقت بأنَّ العُشاري هو نعمة مِنْ نعم الله على «الفريق» وأهله.

زار الفضوليون دكان «كبلو للنجارة» لرؤية المبروك أو للتبرك به .. وامتلأت «المنجرة» بالناس .. وكان للنسوة الحظ الأكبر مِن الفضول .. تطل رؤوسهن بين الفينة والفينة مِنْ باب المنجرة بحذر شديد أو بخجلٍ شديد أو بسببٍ آخر أو بدونه .. أصبحت المنجرة بين ليلة وضحاها مزاراً يومياً كمزارات أولياء الله الصالحين .. تحرك الأمل والرجاء والفضول معاً ..

استقبلت بِشرية بت الدُّخري أخبار تغلب العُشاري على رجال نصرة بت عجوبة وكلابها بشعورٍ هو خليط مِن الفخر والخوف .. فمكانة فارسها قد عظمت بين أهل «الفريق» .. لكن خوفاً قد انتابها مِنْ مكر البعض الذين لا يريدون له الخير .. شيء ما داخلها يحس بأنَّ الأمر لنْ يقف على ما انتهى إليه .. وأنْ نصرة لنْ تسكت وإنْ مِنْ باب كيد النساء.

(20)

لمْ يعرف «فريق بير الشيخ» يوماً حزيناً كذلك اليوم الذي شاع فِيه مرض الدُّخري ود نور الدائم .. فجأة! ملأت الحُمى جسده وبدأ يهذي ويهرف ويتعرق عرقاً شديداً إنْ فِي الليل أو النهار .. حاولوا أنْ يعالجوه ببعض العقاقير البلدية الموجودة فِي دكان العطارة إلا أنْ شيئاً لمْ يفلح فِي خفض الحُمى أو منع الهذيان أو تقليل التعرق .. ولمْ يكن حال العقاقير الطبية بأفضل مِنْ حال الأدوية البلدية، ولمْ تدر الجودلية ماذا تصنع ولا كيف تندب حظها .. فالدُّخري الآن لا يعي شيئاً .. جلست بجانبه بطرف «العنقريب» تنظر إليه فِي حنان .. كم تحبه! وكم تتمنى أنْ ترزق بولدٍ مِنْه ! جعلت تمسح ساقيه وقدميه .. أحست بحرارة شديدة تنبعث مِنْ قدمه اليُمنى .. حاولت أنْ تدلكها فسمعت مِنْ زوجها آهة أنين مفزعة .. دعستها ثانية بشيءٍ مِنْ قوة وهي ترقبها وترقب ملامح وجهه .. فإذا هي تنفجر ويخرج مِنْها قيح كريه الرائحة

لا يُحتمل .. وإذا هو يصرخ متألماً صرخة كادت تقتله .. شاركته الصراخ وهي تقول:

• كُر علي يا الدُّخري! ده شنو ده! ألحقونا يا ناس! ووب علي! .. ووب علي يا يُمه!

سمعت أمها وكل مَنْ بالدار صراخها فأسرعوا إلى داخل الغرفة، اقتربوا منها .. كانت تضع يدها اليُسرى على رأسها وتضرب بكفها اليُمنى عليها وهي تقف فِي وسط الغرفة بثوبٍ لا يغطيها تماماً .. مذهولة وخائفة تنظر إلى قدم زوجها غير مصدقة .. كانت الرائحة الكريهة تملأ المكان .. صرخت أمه الضيين بت الهميم وهي تضرب على صدرها وتنظر إلى قدم ولدها قائلة:

• سجمي! وا سوادي!

وقف الجميع واجمين تتردد عيونهم حائرة بين القدم المتقيحة وصاحبها المتألم .. وقد انصرف عنهم الاطمئنان والأمان .. ولمْ يدر أيْهم أطالت وقفته الحائرة أم قصرت .. ولمْ يدر أحد ماذا يصنع أو كيف يفكر .. وأصاب الشلل كل مَنْ فِي الدار إلا مِن الصراخ والعويل .. إلى أنْ لملمت التاية بت تاج السر نفسها وهي تنظر إلى نسيبها الراقد بلا وعي، وقالت:

• يا جماعة أعملوا حاجة .. نادوا الحكيم .. جيبوهوا هسه دي يشوف الدُّخري عنده شنو .. الراجل غمران خلونا نلحقه ..

أقبل الجميع تسعى خطواتهم بلا اطمئنان ولا أمان ولا هدوء .. يستحضرون فِي أنفسهم صورة الدُّخري المريض يروعهم بعض الروع .. ويرجون ويأملون فِي الله كثيراً أنْ يشفيه ويذهب عنه العِلل والأدواء .. لمْ يغمض لأحدهم جفن حتى حضر الطبيب وبذل ما بذل، ثم قال:

• لازم نوديه مستشفى المدينة هسع وبدون أي تأخير .. يرقد هناك .. لغاية ما نشوف حنعمل شنو ..

صمت هُنيهة ثم سأل:

• وين حاج نور الدائم؟

أجابته التاية وقد أحست بشيءٍ ما لا يطمئنها:

• برة فِي حوش الرجال .. قاعد مع رجال «الفريق» .. ليه فِي حاجة؟

أجابها وهو يسارع الخطى إلى حوش الرجال:

• لا ما فِي حاجة .. بس طولته ما شفته ..

ألقى الدكتور حامد عبد الرحمن على الجالسين السلام .. وانتحى بحاج نور الدائم شيخ العطارين ووالد الدُّخري جانباً، وقال له:

• ضروري يا عم نور الدائم الدُّخري يبيت فِي المستشفى .. فِي تحاليل لازم تتعمل .. ومحاليل لازم ياخده .. وبكره نشوف إيه الحيحصل .. وربك يستر .. أدعوا ليه كلكم ..

سمع الحاج نور الدائم كلام الطبيب بأذن صاغية وقلبٍ واجف .. حبس زفراته وسأله قائلاً:

• داير تقول شنو يا دكتور ..

أجابه دون أنْ ينظر إليه:

لغاية الآن ما فِي حاجة محددة .. بكرة حنعرف كل حاجة إنْ شاء الله..

(21)

جلس الحاج نور الدائم على كرسيه أمام غرفة المستشفى، حيث يرقد ابنه الدُّخري بحالٍ يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، محاطاً بأهل «الفريق» رجالاً ونساءً وأهل السوق، وفيض مِنْ مشاعر الألم والحزن والخوف يجتاح الجميع كأنهم يعايشون كابوساً لا يريد أنْ ينتهي، كان مهموماً بقرار الأطباء بتر ساق وقدم ابنه اليمنيين مِن أعلى مفصل الركبة بسبب «الغرغرينا» التي أكلتهما فلمْ يعودا ينفعان بل إنَّ وجودهما سيقتله لا محالة، جلس طويلاً بين همومه وأحزانه حتى شكا كوب الشاي مِن البرودة .. وكانت دموعه تنسل مِنْ بين جفنيه كلما تفكر فِي حال الدُّخري بساقٍ واحدة، حاول الأطباء كحت القدم وتنظيفها مِن اللحم الميت .. لكن موات القدم انتشر إلى أعلى الساق وفشلت محاولاتهم فِي السيطرة على المرض .. إذ يبدو أنَّ المريض لمْ يكن يعلم بجرح أصابه واندمل على صديد .. وبمرور الأيام أصيب بالغرغرينا .. وما عاد هناك أمل فِي حياته إلا ببترها .. حتى عملية البتر هي

غاية فِي الخطورة فِي حالته هذه وعدم قدرة الأطباء على ضبط مستوى السُّكر وضغط الدم فِي جسمه المحموم .. وقد صرح له كبير الأطباء بأنَّ احتمال نجاحها لا يتجاوز العشرين بالمائة، كان أكثر ما يخيفهم أنْ يدخل فِي غيبوبة كاملة وأنْ تستمر حالة تسمم الدم بلا سيطرة حقيقية، وكانت المشكلة الأكبر هي رفض أمه الضيين بت الهميم وزوجته الجودلية عملية البتر .. وقد أقسمت أمه بأغلظ الأيمان ألا تبتر وقالت مهددة وهي تصرخ وتنتحب:

• هيي يا نور الدائم .. وحات جناي الدُّخري الما ولدت غيره .. تقطعوا كُراعه أقطع شطري .. أمشوا شوفوا ليكم كلام غير كلام القطع ده .. شوفوا شيخ .. شوفوا الجن الأحمر .. بس قطع إلا أموت حتى تقطعوها .. أنا حية ما بتقطعوا كُراع ولدي .. نوديه بره نعالجه كان العلاج بقى قاسي هنا .. بس يقولوا ليكم نقطعه تقولو آمين! ما بتنقطع كان أقطع شطري ..

أجابها بصوتٍ حزين:

• الكلام ده أعوج يالضيين .. قوة الراس حتقتله .. ودياه قبل كده بره ما عرفوا ليه مرض .. تاني نوديه؟! هو ذاته فِي وقت شان نسفره ..

لكنها لمْ ترجع عنْ قرارها، ولمْ تقف عند القسم المغلظ بل أسرفت فِي الغضب وفرط الحزن ولبست أثواب الحداد وأبت أنْ تضع الماء

أو العطر على جسدها حتى يشفى ابنها الوحيد .. ولمْ تكن الجودلية بأقل مِن أمه حِدة وتمسكاً بعدم قطع القدم والساق .. وشاركت أمه الحداد .. كانت تحب زوجها حباً حقيقياً ولمْ تستطع تقبل حقيقة أنْ يعيش بقية حياته بساقٍ واحدة .. وجعلت تقسم وقتها بين رعايته وبين الحُزن عليه .. وربما الاستعداد لحياة جديدة لا أحد يعرف متى ستبدأ أو كيف ستنتهي.

وحزنت بِشرية حزناً عظيماً لمرض أبيها .. كانت تحبه حباً شديداً وكان يبادلها الحب بأعظم ما يكون حب الآباء لأبنائهم، وكان يُسِر لها بحبه لأمها فطين بت الناظر ويرجوها أنْ تطلب مِنْها العفو له ومسامحته على ما اقترف مِن أخطاءٍ بحقها، كانت تستمع لحكاياته الحلوة مع أمها كما كانت تستمع لحكايات «فاطنة السمحة» مِنْ جدها الناظر .. تشعر بالفخر لهذا الحُب الذي أراد له الله ألا يكتمل فِي بيتٍ واحد .. لكنه أحياه فِي قلبين عشقا بعضهما ورضيا بالحرمان .. وعشش الحزن فِي قلب فطين بت الناظر التي ما أحبت غيره .. ولمْ يفلح طلاقها أو سوء معاملته وأهله لها فِي اقتلاعه مِنْ قلبها .. كان فارسها الوحيد .. ورجلها الوحيد وطليقها الوحيد .. وفوق ذلك وهبها الله بسببه بِشْرية غُرة عيونهما ..

وحارت التاية بت تاج السر بين حزنها لمرض نسيبها وحظ ابنتها العاثر .. تنظر إليه فترق لحاله وتتذكر زيارتها لود سالمة فتلعن سوء

الحظ .. وهي تعلم أنَّ ابنتها لنْ تشيل مرة أخرى .. فكيف بذي الساق مِنْ فعل ما لمْ يستطعه ذو الساقين .. كان الحلم الذي انتظرته وابنتها يتلاشى ويتبدد .. وربما إلى الأبد إنْ مات الدُّخري ..

وجدت نصرة بت عجوبة الماء العكر الذي تصطاد فِيه فريستها .. فأخذت تمشي بين أهل «فريق بير الشيخ» وتجار وزبائن سوق المدينة وتعلن أنْ سبب مرض الدُّخري ود نور الدائم هو «شيخ الجن أبو عينين قزاز» الذي يسلطه عليه ود سالمة ليقتله لأنه لا يوافق على زواجه مِنْ بِشرِية بت فطين وابنته التي لمْ يلد غيرها .. وجعلت تكيد له وتوغر الصدور عليه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .. كانت تقص عليهم تفاصيل عمل شيخ الجن .. وكيف أنّه تسبب فِي مرض الدُّخري .. ولمْ يدر الناس أصادقة هي أم كاذبة ..

لمْ يتأثر «الزقاق» كثيراً بمرض الرجل أو خطورة حالته.. إلا خميس القرمبع الذي حاول أنْ يستفيد مِنْ كيد كودية الزار حتى يقنع الرسن بت السبَّال بالعودة إلى العمل .. وهو يقول للرتينة بت الكُع هامساً: «كتر الدق يلين الحديد».

(22)

أقبل جاد الله عوض الكريم إلى المنجرة فرحاً يكاد يطير بعيداً عن الأرض إلى سماواتٍ أرحب، ولمْ يكد يستقر بها ويشد أنفاسه إلى داخل رئتيه حتى التف حوله أصحابه يهنئونه بالولد الذكر الذي أطل على دنياه بكور هذا الصباح .. رضيت نفسه كل الرضا وأنفق بعض الوقت بينهم مغتبطاً ومسروراً بالولد الذي انتظره زمناً طويلاً، كان يراه حتى قبل أنْ يولد غلاماً ذكي القلب سريع الحس صقيل اللسان يربو أمامه يوماً بعد يوم، داعبه زكريا الكباشي قائلاً:

• يا أبو عوض الكريم .. حتضبح لينا متين .. سمايتنا عايزنها براها .. ما تلمنا مع ناسك الجايين مِن البلد ..

ضحك وقال:

• حاضرين ..

قال العُشاري وهو يرسم الابتسام على شفتيه:

• العقيقة علي .. أب أربعة كباشي نقاوة ..

أجابه بسرعة:

• بس الكباشي المعانا ده أب اتنين ما أب أربعة ..

نظر العُشاري إلى زكريا الكباشي وهو يضحك ملء شدقيه، بينما عقد زكريا حاجبيه إلا أنَّ جاد الله احتضنه فأسلست نفسه قليلاً.

انتحى العُشاري بصاحبيه وهمس لهما ببعض الكلام، كان يحدثهم بشيءٍ مِن البشر والبشاشة ومِن الاهتمام والمبالاة، فظهر فِي وجهيهما ما لم يألفاه، ولما رأى منهما اطمئناناً كما يجب أنْ يكون وقع ذلك فِي نفسه موقعاً حسناً، فأسرف فِي الشرح والتفصيل وهما يؤثران الصمت وينعمان بحسن الاستماع، ومضى فيما يقول مِنْ كلام حتى سلخ معهما ثلاثين دقيقة أو نحوها، ثم شيعهما إلى باب المنجرة وهو يوصيهما على ما اتفقوا عليه.

لمْ تشعر الضيين بت الهميم بثقل الجهل ووطأته كما عرفته اليوم وهي لا تدري سبباً لإصرار زوجها على أنْ ينتزع ابنهما المريض مِنْ فراشه الأبيض بمستشفى المدينة ليسجيه داخل غرفته فِي بيته الحزين .. ترى هل فقد الأمل؟ هل أتى به ليموت فِي بيته وعلى فراشه؟ لمْ يفلح مكرها به وتحايلها عليه فِي أنْ يكشف لها سبب هذا الإصرار الذي وصل به إلى أنْ يهددها بالطلاق إنْ هي أصرت على رأيها بعدم مغادرة ابنهما غرفته بالمستشفى .. لمْ يُخِفْها قسمه بتطليقها بقدر ما أخافها تخييره لها بين أمرين إما بتر الساق والقدم أو نقله إلى البيت

.. كان خياراً صعباً .. وهي لنْ تحتمل أنْ ترى ابنها بساقٍ واحدة .. سألت نفسها: «الراجل ده قصده شنو؟ إشمعنى الليلة لازم يبيت فِي بيته؟» .. وعاشت الجودلية ذهولاً لمْ تستطع السيطرة عليه .. ولمْ تقدر أنْ تمنع أمر نسيبها .. لا بأمرها ولا بأمر دموعها .. حاولت أنْ تحتمي برأي الطب .. لكن الحاج نور الدائم كان حاسماً وحازماً .. يجب نقله إلى بيته وإنْ مات، كان قاسياً لكنه لمْ يتراجع بسبب الدموع أو بسبب خطر النقل.

سُجي الدخري مستقبلاً القبلة .. وما إن استقبل القبلة حتى تحولت الدار بكاملها إلى مناحة .. واشتم الجميع رائحة الموت .. كان حال المريض سيئاً لا يعي شيئاً مما يدور حوله .. الحمى أبت أنْ تنخفض .. ورائحة كريهة لا تزال تنبعث مِنْ ساقه وقدمه .. والعرق يتصبب كماء «البرود» بلا توقف .. وكان الزائرون والزائرات يتحدثون فِي مجالسهم فِي حوش الرجال الخارجي وحوش الحريم الداخلي عنْ سر هذا النقل المفاجئ لمريض على وشك الموت .. لِمْ لا يريد هذا الأب القاسي لولده أنْ يموت فِي سلام؟ وكانت الجودلية تسمع هذه الأحاديث فتمتلئ روعاً وحزناً وحنقاً .. وهي مع ذلك تسمع لهم ولا ترد عليهم جواباً .. كبلها الذعر وهي تحس بدنو موته .. كم تتمنى أنْ تضمه إليها وأنْ تقبله قبلة الوداع!

جلس نور الدائم على كرسيه فِي حوش الرجال .. ينظر إلى الزائرين

مطمئناً كأنَّه قد امتثل لأمر الموت .. وينتظر لحظة خروج الروح .. أو لحظة عودتها ثانية إلى الجسد الميت .. لتعود إليه الحياة .. لا يعلم إنْ كان ما أقدم عليه هو الصواب أم هو الجنون بعينه .. لكن المؤكد أنَّ فِيه شيئاً مِن أمل وشيئاً مِنْ رجاء .. كأنَّ الله قد أنزل عليه السكينة والاطمئنان والأمان فحالوا بينه وبين الخوف والشك والقنوط .. وكان الجالسون ينتظرون الموت وينظرون إليه ويعجبون .. لكنهم لمْ ينجحوا فِي أنْ يأخذوا مِنْه أي حديث .. سمعوا أذان المغرب فقام بعضهم يتوضأ .. واتجه بعضهم إلى مسجد «الفريق» .. بينما آثر البعض الصلاة فِي دار الدُّخري .. فربما تكون الصلاة الأخيرة.

(23)

خرجت الجودلية وهي تصرخ وتولول مِن الغرفة .. لمْ تستطع أنْ تقف على قدميها فأسرع النسوة إليها ومنعنها مِن السقوط .. وشاركنها البكاء والعويل والنواح .. وهنْ ينقلن أبصارهن بينها وبين الضيين بت الهميم الجالسة على مقعدها منذ دخول الرجال إلى حيث يُسجى ابنها الوحيد فِي سكون غريب لمْ يعتدنه مِنْها، وهي تنظر إليهن دون أنْ تراهن .. كانتا مجهدتين مكدودتين وقد بلغ الإعياء مِنْهما مبلغاً وكاد أنْ يأتي عليهما الحزن فِي غير رفق .. طال تفكير النسوة وائتمارهن وهن يهمسن فِي دواخلهن: «الله يكضب الشينة!» .. وهمست إحداهن للأخرى فِي الخفاء: «يا حليلنا مِنَّها .. باين الراجل مات .. الله يرحمه .. »، واستيقنَّ أنَّه لن تمر سوى لحظات وتعلن الوفاة .. خرج إليهن الحاج نور الدائم .. متجهاً إلى حيث تجلس زوجته الضيين .. انكفأ يقبل رأسها .. الكل ينتظر إعلان الخبر الحزين .. وانهمر دمع سخين مِنْ عينيه ..

والمرأة تنظر إليه فِي سكونٍ لا يعرف له معنى، قال يحدثها:

• أبشري يأم الدُّخري .. أبشري ..

تلفتت النسوة يُعاين بعضهن البعض ويسألن: «هل فِي الموت بُشرى؟» لكن دهشتهن لمْ تستمر طويلاً حين سمعنه يكمل وهو يمسح دمعة سقطت على وجهه بطرف عُمامته:

• أبشري .. الحمد لله .. الحُمى راحت .. والكُراع نضفت .. أبشري .. ما حنقطعه إنْ شاء الله ..

هاج الدار وماج .. وانقلب الحال مِنْ حالٍ إلى حال .. وحلت الزغاريد محل الدموع .. وحمد الجميع الله على نعمة الشفاء .. وانكفأت النساء على الجودلية والضيين يباركن زوال الخطر .. لملمت الجودلية نفسها ونهضت تشارك صويحباتها الفرحة والزغاريد .. إلا أنَّ الضيين لمْ تشاركهن شيئاً .. أحس نور الدائم بحال زوجته .. فأسرع بالدخول إلى الغرفة وعاد وفِي معيته العُشاري المبروك .. وقفا أمامها .. مسح المبروك على وجهها بماء مِن إناء كان معه .. وتفل فِي وجهها .. فإذا هي تبكي بحرقة .. وما إنْ وقع بصرها عليه حتى صرخت فِي وجهه:

• خلاص كتلته .. سويت الدايره .. الله يكتلك يا ود سالمة .. الله يكتلك .. زي ما كتلته ولدي ..

لمْ يجبها لكنه ابتسم .. وقال موجهاً حديثه إلى حاج نور الدائم:

• خله ينوم الليلة .. وكان أصبحت رجعوه الإسبتالية .. حمد الله على السلامة .. وإنْ شاء الله أجر وعافية ..

اختلط الأمر على الضيين وهي تسمع كلماته الغريبة عليها وزغاريد النساء وتشاهد الرضا على وجه زوجها ووجه الجودلية وكل الزائرات .. وجعلت تراوح ببصرها بينهم جميعاً دون أنْ تميز ما يقولون .. أو تجد معنًى للرضا الذي يغشى الوجوه .. حاولت أنْ تنهض فلمْ تقدر .. فأسرع زوجها يسندها .. وهمس لها بصوت فخيم راضٍ:

• حمِّد الله على سلامة الدُّخري يأم الدُّخري !

قالت وهي تنتحب:

• ما تغشني يا راجل .. بالصح الدُّخري طاب؟

أومأ لها برأسه، فازداد نحيبها .. لكنه سندها بيده .. وأدخلها إلى الغرفة لتراه .. كانت مذهولة لا تدري ماذا حدث ولا كيف حدث .. وجعلت تتمتم: «الحمد لله .. ولدي طاب .. ولدي طاب» .. والحاج نور الدائم يكبر ويبسمل ويحوقل .. والجميع يبارك لهما الشفاء .. لكن الجميع حائر لا يدري .. ماذا حدث داخل الغرفة .. وكيف منع المبروك الموت عن الدُّخري .. همست إحداهن تقول:

• السواها المبروك تاني ما بتمرق مِن الفريق كله .. لقيتيها يا

سالمة .. تاني تطلعي لينا فوق راسنا ..

أجابتها أخرى بصوتٍ خفيض:

• دحين بعد جابه مِن المقابر بعرس ليه بِشْرِية .. يمين كان أبا يبقى إتلوم .. وود سالمة كان قبل عليه بوريه المكشن بلا بصل ..

قالت ثالثة محذرة:

• أسكتن وصمن خشمكن .. ده ما وقته .. الناس فِي شنو وإنتن فِي شنو ..

(24)

أشرقت الشمس بنور ربها، وأصبح أهل «فريق بير الشيخ» كُلهم حائرين لا يدرون أيصدقون ما حدث أمامهم أم ينكرونه، وهل هو خير كله أم شر كله، تفرقوا يسعون بين الأزقة والطرقات وقد ملأت قلوبهم وعقولهم أخلاط لا يبلغون مِنْها شيئاً، كانوا يتحدثون إلى بعضهم فيلتهمون الكلام التهاماً.

فتح الدُّخري عينيه بصعوبة شديدة .. لمْ يتبين أين هو إلا بعد حين، أدرك أنَّه ليس فِي غرفته .. رائحة الدواء تملأ المكان .. أمه الضيين تنام على كرسي .. وزوجته الجودلية تقف بعيداً عنْه .. لا يتبين وجهها على وجه الدقة .. كأنَّها تؤدي بعض الأعمال .. يقف أبوه بجانب النافذة .. امرأة بثوب أبيض تضبط كيساً معلقاً يحتوي على مادة سائلة .. وأنبوب طويل يتدلى مِنْه لا يعرف أين ينتهي .. حاول أنْ يركز أكثر .. لكنه لا يذكر شيئاً .. سأل بصوتٍ عالٍ فِيه حشرجة:

• أنا وين؟ الحاصل شنو؟

التفت الجميع إليه فِي وقت واحد .. حتى الضيين استيقظت على صوته، وكعادة دموعها القريبة انسلت بلا استئذان، كانت أول مَن أجابه:

• الحمد لله البقيت طيب .. حمد الله على سلامتك يا ولدي .. إنت فِي الإسبتالية ..

نزلت عليه كلمات أمه كما تنزل الصاعقة .. تذكر ما كان يسمع بين الفينة والفينة حين يعود إليه الوعي .. كانو يتحدثون عنْ بتر جزء مِنْه .. ربما ساقه أو قدمه .. حاول أنْ يتحسسها لكن يده لمْ تصل إليها .. أحس بالضيق .. حاول مرة أخرى .. لكنه فشل مرة أخرى فِي الوصول إليها .. فصرخ بأعلى صوته:

• قطعتوها! قطعتوا كراعي!

وجعل يبكي بصوتٍ عالٍ، فاقترب مِنْه أبوه حاج نور الدائم .. وقال وهو يرسم ابتسامة هادئة:

• لا يا ولدي .. أحمد الله .. ما قطعوها .. استهدى بالله .. واستغفر وأشكر ربك .. إنت مشيت للموت وجيت .. الحمد لله .. الحمد لله ..

وحكى الوالد لولده قصته منذ أنْ غاب عن الوعي والحمى التي جعلته يهذي، وقرار الأطباء كلهم بضرورة بتر الساق والقدم،

ورفض أمه وزوجته لقرارهم وإصرارهما على عدم قطعهما، ثم كيف حدثت المعجزة على يد العُشاري المبروك، لمْ يدر الدُّخري هل يصدق أم لا .. سأل أبيه مستنكراً:

• ود سالمة عمل شنو يعني؟ آخر الزمن بقى حكيم ..

نظر أبوه إليه بأسف وقال:

• لا يا ولدي ما بقى حكيم .. بس كان رضيت ولا أبيت .. صدقته كلامنا ولا كضبته .. كان ما ود سالمة كان شلنا فيك الفاتحة .. كفاية إنه جابك مِن المقابر صادي ..

أدار له ظهره غاضباً وخرج مِن الغرفة وهو يتمتم:

• ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً*﴾ .. صدق الله العظيم .. أستغفرك يا رب وأتوب إليك .. الله يهديك يا ولدي .. الله يهديك ..

التفت الدُّخري إلى أمه كأنه يستغيث بها .. ثم مد يده كأَنَّه يريد أنْ يمسك بأبيه .. لكنه أعادها ثانية .. ومسح بها على رأسه غير مصدق ما يقال عما فعله ود سالمة له .. نادى على زوجته وسألها:

• أقعدي يالجودليه فهميني السجم ده عمل شنو .. شنو العمله ود سالمة ما قدر الحكيم يعمله ..

جلست على طرف فراشه .. وبدأت تحكي له .. وهو لا يكاد يصدق أو لا يريد أنْ يصدق .. يقاطعها بين الفينة والفينة سائلاً

عنْ تفصيل غاب عليه .. كان يريد مِنْ دخيلة نفسه ألا يكون ما يقال صحيحاً .. يبحث عنْ شيءٍ ما يهزم فكرة أنَّ الرجل الذي يدعى العُشاري ود سالمة هو مَنْ قام بعلاجه ونجح فِي ذلك .. كأنَّ الأمر يكمن فِي مَنْ عالجه لا فِي شفائه .. يغالط نفسه ويغالط الحقيقة .. فقط لا يرغب فِي أنْ يكون لود سالمة فضل عليه ..

(25)

لمْ يكن حال «الزقاق» بأقل مِنْ حال «الفريق» دهشة أو عجباَ .. وإن اختلف استقبال بعض أهله عن الآخرين .. وأصاب الغيظ والحنق خميس القرمبع فاعتزل الناس وأنفق ليلته ثائراً حزيناً لمْ يذق النوم فيها إلا غراراً .. بيما استقبلته الرسن بالحفاوة التي تلزمه، وهذا ما كان عليه حال الخالة الرتينة بت الكُع وجواهر الحبشية .. اجتمعوا فِي أحد أركان البيت الخالي مِن الزبائن والفرحة تبدو واضحة على وجه الرسن، نظر إليها خميس القرمبع باستخفاف وقال:

• شايفك عايزة تطيري مِن الفرح يالغبيانة .. بالعمله ده تاني ود سالمة تشميه قدحة ..

أحست الخالة الرتينة بضيقها، فحاولت استدراجه ليحكي فيخفف عنْها بعض الشيء:

• ود سالمة سواها كيف؟

أجابها:

• سوى شنو يعني؟ ولا حاجة .. قال لي شيخ الجن بتاعه أمرق مرق .. بس ..

قالت مستنكرة:

• أمشي يا ممسوخ .. غايتو إنت الما بتدوره تحدر لي في الضلمة ..

لمْ تحفل الرسن بما قال .. لكنها سرحت بخيالها إلى فارسها الذي يتحدث عنه الجميع بالخير إلا خميس القرمبع .. تركتهما يتجادلان ودخلت إلى غرفتها هائمة لا تدري أين ينتهي بها المطاف.

أما بشرية فما غشت السعادة أحداً كما غشت بِشرية بت فطين .. فوالدها قد نجا مِن الموت .. وكان حبيبها مَنْ سخره الله لعلاجه .. كانت تستعيد ما فعله العُشاري فلا تكاد تصدق أنَّ أباها قد شفي .. دخلت عليها أمها وهي على هذه الحال مِن السعادة فسألتها:

• ماسكاك أم فريحانة طبعاً؟ حمد الله على السلامة .. بركة الأبوك صبح طيب ..

نظرت إلى أمها بحب وأجابتها:

• والله يمه أنا ما مصدقه الشفته .. ولا السمعته مِنْ جدي نور الدائم وهو بحكي لي حبوبة الضيين .. حاجة زي الحِلم ..

قالت وقد زاد فضولها:

• الناس كلها تقول وتزيد .. كدي أحكي لي براحة كده الحصل شنو من طقطق للسلام عليكم ..

اعتدلت بِشرِية فِي مجلسها وبدأت تحكي لأمها فطين:

• ليلة الخميس الفات جو راجلين لجدي واحد اسمه زكريا والتاني اسمه جاد الله في الإسبتالية .. شافو أبوي .. وقعدوا مع جدي زي ساعة كده يتكلموا براهم .. بعد داك مشوا وما في واحد مننا كان عارف ديل منو .. قلنا ناس من السوق جو يشوفوا أبوي .. مما أصبحت علينا يوم الخميس جدي قال .. حضروا حاجاتكم حنمشي البيت .. سألتو حبوبة .. يعني شنو؟ قال ليها حنسوق ولدنا ونمشي نرجعه بيته .. ما عايزين علاج الإسبتالية دي .. دكاترة طالعين .. ودكاترة خاشين ... والولد حالته متأخرة وإنتي حالفة ما يقطعوا كراعه .. خلاص هنا حيموت وهناك حيموت .. أحسن يموت فِي بيته .. حبوبة مِما سمعته بجيب سيرة الموت وقامت تردح وتسكِّل .. وتكورك .. وتصرخ .. وتحلف بالله ورسوله ما يشيلوه يودوه البيت .. أهه جدي كمان راسه وألف سيف إلا نوديه بيته .. وخالتي الجودلية ما عارفة تسوي شنو .. الناس إتلموا .. حاولوا مع جدي .. طرد الناس كلها .. وبقينا ما عارفين راسنا مِنْ قعرنا ..

صمتت قليلاً وتناولت كوباً مِن الماء واجترعت ما تبقى مِنْه، ثم

استطردت قائلة:

• على نص النهار كان شلنا ووصلنا بيت أبوي .. ورقدناه فِي أوضته .. بس أنا نسيت أقول ليك .. الدكتور رفض في الأول كله كله أنه يمرقه مِن الإسبتالية .. إلا جدي جراه بره الأوضة .. وجو جنبي بس ما شافوني .. جدي قال ليه .. لازم نعمل كده شان أمه توافق تقطعوا الكُراع .. المهم الدكتور رضي لكن قال لجدي تمضى لينا هنا فِي أوراق المستشفى إنك طلبته نخرجه على مسئوليتك .. المهم وصلنا البيت .. وناس الفريق جونا مستغربين .. كلهم بسألوا طلعتوه ليه؟ لا عارفين يقولوا لينا حمد الله على السلامة لا البركة فيكم .. وأبوي حالته بتتأخر .. والناس منتظرة طلوع الروح .. وحبوبة زهللت .. والجودلية لبست السوكوبيس الأبيض منتظرة اليوم يتم .. وجدي قاعد فِي كرسيه ما بقوم منه إلا للصلاة وأبى الزاد .. وما في واحد عارف فِي راسه فِي شنو .. وأنا بقيت ما عارفة أنا فِي حلم ولا علم ..

صمتت مرة أخرى تناولت كوب الماء .. كان فارغاً .. وضعته ثانيةً، وأكملت:

• بعد صلاة المغرب دخلوا علينا الراجلين الجوا الإسبتالية .. زكريا وجاد الله .. ودخلوا لأوضة أبوي مع جدي .. بعدها بشوية شفنا العُشاري داخل الأوضة شايل ليه باغة فِيها شيتن

كدي زي الموية .. وعصاية سمحة يدها فِيها شيء غريب ما عرفته شنو .. ولابس لي جلابية بيضاء وعمة وشال تقول جاي يصلي الجمعة .. الناس إتلخمت .. وأنا ذاتي إتلخمت .. الجاب العُشاري لي بيت أبوي وهو فِي الحالة دي شنو؟ جدي مما شافه دموعه جرن .. وقال ليه .. «إتفضل يا ولدي سوي البتدوروه .. ربنا يجعل في إيدك الشفاء» .. طوالي الراجلين شالوا الباقة وبدوا يغسلوا كُراع أبوي العيانة .. بعد خلصوا غسيل .. العُشاري ختة طرف العصاية الكان شايله فوق كُراع أبوي .. وداسه دوسه خفيفة .. والله يُمه طلعت مِنْها جنس وساخة .. مِدة لونه أخداااار .. وريحته عفنة عفانه .. المهم عمل كده ثلات مرات لغاية الكُراع ما جابت دم نضيف .. رفع عصايته قاموا الراجلين نضفوها تاني بالموية الكانوا شايلنها فِي الباغة .. أبوي كان فِي كُل مرة بيصرخ بطول حسه .. ويعرق عرق شديد .. والراجل الاسمه زكريا يشيل ويمسح ليه بموية الباغة .. بعد داك .. لفوا الكُراع بشاش نضيف .. والعُشاري قعد جنبه فِي طرف العنقريب وقرا ليه شوية أوراد وقال لجدي بكرة تودوه الإسبتالية زي ما اتفقنا .. جدي قلده وقعد يبكي ويقول الحمد لله .. وعاين لخالتي الجودلية وقال ليها أحمدي الله الدُّخري طاب إنْ شاء الله .. ما صدقته وبُردلب وقعت غمرانه .. العُشاري ملأ يده مِنْ موية الباغة ومسح ليها

فِي وشها .. صحت كأنه ما كان فِيها حاجة .. بس قامت تزغرد وطلعت مِن الأوضة ..

سألتها أمها:

• وحبوبتك .. كانت وين؟

أجابتها:

• حبوبة كانت مزهللة ما عارفه أي حاجة وما كانت معانا فِي الأوضة .. جدي كلمه .. ومما شافت العُشاري مسكته أم هللاه هلا .. ما خلت ليه جنبه ينوم عليها .. لكن جدي سكته .. وراها الحقيقة .. برضه ما صدقت .. لغاية ما قابلت الحكيم تاني يوم .. وطمنه .. الحكيم ذاته لما كشف على أبوي قرب يغمر .. وبس يقول: «لله فِي خلقه شئون» .. الزول ده عملتوا ليه شنو؟ تشيلوا ميت أمس وتجيتبوا حي الليلة .. والله دي معجزة .. والله دي معجزة .. دخل حمام الأوضة إتوضأ وجاء فرش التبروقة .. وصلى ليه ركعتين جنب سرير أبوي .. وقعد بعدن يبكي .. لمن جدي رفعه مِن الواطة ..

صمتت برهة وضحكت بصوتٍ عالٍ وأردفت قائلة:

• عارفة يمه .. جانا العِشاري فِي الإسبتالية يزورنا .. حبوبة إدست منه خجلانة ما عارفة تقابله كيف بعد ولده طاب ..

صمتت مرة أخرى لكنها قالت فجأة:

• عارفة يُمه .. فِي حاجة غريبة شفتها .. موية الباغة الجابه العُشاري معاه ما كانت بتفضى كلو كلو .. كل ما أشوفه ألقاها مليانة .. مع إنها ما كانت كبيرة .. كانت باغة لا هي كبيرة ولا هي صغيرة .. زي باغة الزيت كده .. بس أصلها ما فضت .. طوالي مليانة .. والأغرب لما العُشاري مسح وش خالتي الجودلية .. وشها نور كده ما عارفه ليه ..

لمْ تجبها أمها لكنها زمت شفتيها وعقدت حاجبيها وتمتمت: «حمد الله على سلامة أبوك يا بتي».

(26)

نهضت الرسن مِنْ مرقدها حين ارتفع الضحى مِن النهار، وقد مضى وقت طويل وهي على هذه الحالة مِن التأمل والانتظار والترقب، تسللت بعض أشعة الشمس وهي تتراقص فِي دلال عبر ستائر النافذة الكبيرة وأضفت سحراً رائعاً على الغرفة، اتجهت صوب المرآة لتعدل مِنْ هندامها .. تبسمت وهي ترى انعكاس صورتها عليها .. شعرت بجمالها الأنثوي الطاغي يسيطر على المكان .. تحسست جسدها .. ثم قلبت كفيها ومدت قدمها اليُسرى لتتأكد مِنْ رسم وشم الحناء المتقن .. كان وشماً جميلاً رسم بعناية فائقة .. كأنَّه رسم خصيصاً لأجل حبيبها لا لأجل الرجال كُلهم .. اتسعت ابتسامتها حين مر بخيالها طيف العُشاري .. فارسها الجميل .. فركت يدًا بيد .. وأطلقت آهة أشبه بالأنين الحالم .. أغمضت عينيها كأنَّها تريد أنْ تخفيه عن الآخرين بين جفونها .. تحبه بجنون .. تجتهد فِي أنْ تسلك إليه

كل السُّبل .. لكنها لمْ تدرك درباً مستقيماً يوصلها إليه .. سحبت بعض الهواء إلى رئتيها ثم زفرته بهدوء .. شعرت بشيءٍ مِن الراحة واتجهت إلى طاولةٍ قريبة كانت قد وضعت عليها ثوباً مِن التوتال ذي الألوان الهادئة .. وفستاناً يماثله فِي هدوء الألوان وتجانسها .. على غير عادتها وعادة نساء «الزقاق» .. كانا غريبين على المكان رغم جمالهما .. عادت مرة أخرى إلى المرآة .. وبدأت فِي تصفيف شعرها الطويل .. ووضعت شيئاً خفيفاً مما تضعه النساء على وجهها فبدت أكثر جمالاً .. وعطرت جسدها بعطرٍ غير نافذ لكن أريجه مريح وملهم .. كان كل شيءٍ غريبًا عن «الزقاق» .. بدلت ملابسها ولفت الثوب على جسدها .. بدت جميلة رائعة الجمال .. وهادئة بل شديدة الهدوء.

حين انتهت كان النهار قد مال إلى الانحدار .. وبدأت حدة أشعة شمسه تنكسر .. ألقت نظرة أخيرة إلى المرآة ثم تركت غرفتها خارجة .. لمْ تخط غير خطوتين حتى سمعت الخالة الرتينة بت الكُع تصيح:

• ووب علي مِنْ سماحتك .. قاشرة كده ماشة وين؟

التفتت إلى حيث مصدر الصوت فشاهدتها تجلس مع خميس القرمبع وجواهر الحبشية .. اتجهت إليهم .. ووقفت أمامهم فِي دلال وقالت:

• ماشة السوق ..

قاطعها خميس القرمبع قائلاً:

• والماشي السوق بلبس توب جديد .. وفستان جديد .. ويتحنن .. و ..

انتهرته قائلة:

• أسكت يا ني .. ما فضل إلا إنت شان تسألني ماشة وين ..

لمْ يحاول تجاوز الإساءة بل قال يريد الثأر لنفسه:

• يمين الله لو كنت مِن الرجال البلابيطهم ما بتقع براهه .. كان تفيتك تف .. ومجغتك مجغ .. وشربتك جووووط .. وترعتك آآآآآآآآآآع.. وكان خليت الزقاق كله يقعد تحت الحيطة ويسمع الزيطة يا بت أم زقدة .. ماشة لود سالمة .. والله الراجل ده عامل ليك عمل .. ومسلط عليك الجن الأحمر .. وحتجني عديل .. يا مرة أعقلي ما بعرسك كان رضيتي ولا كان أبيتي .. وكان نفسك فِيه ساكت .. ما حينفع لأنه ما بفك سرواله فِي حرام .. أعقلي يا مجنونة .. إنتي عايزة تفهمي متين يا سجم!

ضحكت الخالة الرتينة بت الكُع وقالت:

• الحمد لله البلابيطك بتقع براها .. كفاية العندك .. قوم أمشي معاها .. شان ما فِي واحد يشاغله فِي الشارع ..

قال:

• يا ريت نلقه البشاغله .. نحن لاقين .. على الأقل نرجع زباينا الزمان .. البقوا يخافوا مِنْ بيت الرسن ..

قالت:

• لا ما يمشي معاي .. ده نحس ..

أجابها:

• بمشي معاك فِي نَفَسِك .. .. ويا ريت أنحسك يا بت أم زقدة .. كان سويتي السبعة وزمته ود سالمة ما بركبك لا فِي الحلال ولا فِي الحرام .. أمشي قدامي .. أصلك زي الكلبة بتدوري خانقك ..

(27)

كان يراقبها طوال الطريق إلى سوق المدينة حيث يقع دكان «كبلو للنجارة» فِي أوله مِنْ ناحية «فريق بير الشيخ»، يضرب أخماساً وأسداساً محاولاً أنْ يخمن سبب إصرارها على هذه الزيارة فِي هذا اليوم .. شيءٌ ما داخله يوسوس له أنَّ وراء الأكمة ما وراءها، ومِن المؤكد بأنَّ هذا الوسواس يخيفه .. ويصوِّر مِن الأوهام ما يصوِّر ومِن المخاطر التي قد تقع نتيجة هذه الزيارة غير المتوقعة .. لكنه لا يستطيع تحديدها ولا يدرك لها مغزى .. حاول أنْ يشغل نفسه باجتهادات هنا وهناك دون أنْ يصل إلى نتيجة محددة يمكن أنْ تشفي غليل فضوله أو تخفف بعضاً مِنْ مخاوفه .. يريد أن يجأر لها بما يدور فِي مخيلته وما يحسه مِنْ خوف لكنه لا يستطيع .. فرك خاتمه الكبير فِي أوسط أصابع يده اليمنى .. يزداد قلقه كلما اقتربا مِنْ مقصدهما .. وصلا المنجرة .. كان الرجال يتوضأون لصلاة المغرب .. حيوهما .. وسألت الرسن العُشاري أنْ يمنحها قليلاً

مِنْ وقته لأمرٍ مهم تريد أنْ تسر به إليه .. فاستأذنها أنْ يُصلي أولاً .. بينا قطب بقية الرجال جباههم غير مرحبين بهما.

اصطف الرجال للصلاة .. وتقدم العُشاري ليؤمهم .. كان ترتيله جميلاً يخطف القلوب .. انتهى مِنْ قراءة الفاتحة وأمن عليه المصلون ثم بدأ يقرأ: ﴿إنَّما التَّوبة على الله للَّذين يعملونَ السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ فأولئكَ يتوبُ الله عليهِمْ وكان الله عليماً حكيماً* وليستِ التَّوبة للَّذين يعملونَ السَّيِّئاتِ حتَّى إذا حَضَرَ أحدَهُمُ الموتُ قال إنِّي تُبْتُ الآن ولا الَّذين يموتون وهمْ كُفَّارٌ أولئكَ أعتدْنا لهمْ عذاباً أليماً﴾ .. كان ترتيله للآيتين هادئاً مطمئناً يبعث الأمن والأمان .. كأنَّ كلماتهما قد مست وتراً حساساً فِي نفس خميس القرمبع .. بدأ جسمه يرتجف .. لمْ تستطع ساقاه أنْ تحملاه .. حاول أنْ يستند على طاولة المنجرة .. ثم تمتم دون أنْ يعي «صدق الله العظيم» .. أحست الرسن بحال رفيقها .. وشاركته الشعور دون أنْ تدري معنى الآيتين .. انتهت الركعة الأولى وبدأ العُشاري يرتل مرة أخرى بصوتٍ يذيب القلوب ثم قرأ: ﴿وإذا جاءَكَ الَّذين يُؤمنون بآياتنا فقلْ سلامٌ عليكم كَتَبَ ربُّكم على نفسهِ الرَّحمةَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكم سُوءاً بجهالةٍ ثمَّ تابَ مِنْ بعدِهِ وأصلحَ فأنَّه غفورٌ رحيمٌ﴾ .. كأنه يخاطبهما فِي صلاته .. لمْ يفهما ما يقال لكنهما أحسا بأنَّهما المعنيان .. وعقبا معاً «صدق الله

العظيم» ..

زاد ارتجاف خميس القرمبع .. وبدأ يجهش بالبُكاء دون أنْ يعرف لذلك سبباً .. جرت دموعه غزاراً .. وجلس على الأرض لا يقدر على الوقوف .. والرسن تنظر إليه وتبكي .. كأنَّهما يريدان غسل ذنوبهما بدموعهما .. انتهت الصلاة وهما على حالهما .. والرجال ينظرون إليهما متعجبين مكبرين ومهللين فِي صوتٍ خافت كأنهم لا يريدون أنْ يشغلاهما عنْ دموعهما .. والعُشاري ينظر إليهما وهو يرسم ابتسامة وادعة مطمئنة.

طوى التبروقة ووضعها بجانب الحائط المجاور للمنجرة .. واتجه ناحيتهما ووقف أمامهما مرحباً وقال:

• إنْ شاء الله خير .. فِي حاجة معينة ممكن أعمله ليكم ..

مسحت دموعها بمنديل ورقي كانت تحمله، وقالت:

• والله أنا ما عارفة الجابنا هنا شنو .. شكلي نسيت ..

التفتت إلى رفيقها وأردفت:

• نمشي نحن يا خميس .. أنا ما عارفة عايزه شنو ..

لمْ يلتفت إليها لكن عينيه لمْ تتنازلا عن النظر إليه، قال يسأله:

• يا مولانا إت مِن أهل الدنيا دي ..

أجابه بابتسامة وادعة:

• آي .. زي وزيك من أهل الدنيا ..

قال دون أن يبعد نظره عنه:

• لا .. لا .. يا مولانا .. إت ما زينا .. أنا وخيتي دي ناس «الزقاق» .. إلا إت ود أصول ومبروك .. إت ما زينا جت .. إت ما زينا ..

صمت هنيهة ثم أردف:

• أنا سمعت ناس كتير بصلوا إلا السويتو فيني الليلة ما سواه زولن قبلك .. أنا ما كت برجف إلا تجيني الهيجة .. إت الليلة رجفته جسمي كله بالقرآن .. إت قريت لي أنا .. بتدور تخليني أتوب .. بتدور تكتل الدودة الفي حشاي .. إت عملته كده زمان مع ود السروجية ..

لمْ تفهم الرسن ما يقوله لكنها خجلت فانتهرته قائلة:

• أسكت يا خميس .. أنطم ..

قال العُشاري:

• خليه يقول الفي نفسه .. خميس ده راجل طيب .. بكره نشوف لي شغل فِوق الجامع .. ولا الزاوية الجنب بيتي .. ينضف ويكنس ويصلي مع الناس ..

عجبت لقوله ونظرت لخميس فوجدته فاغراً فاه، فقالت سائلة:

• شن قولك يا خميس؟

أجابها دون أنْ يلتفت:

• بعد قول مولانا ما فِي قول تاني ..

التفت إليها العُشاري وناولهما جرتين مليئتين بالماء، وقال لها:

• الليل دخل عليكم .. أمشوا بيتكم .. استحمي بالموية دي .. وكان بقينا من ناس الدنيا دي تعالي لينا هنا ..

ثم التفت إلى خميس وقال له:

• إت يا خميس شيل الباغة دي واستحم بيها .. وتعال مع خيتك الرسن كان الله حيانا مِن الموت .. إنْ شاء الله ..

خرجا لا يدريان أهما يقظانان أم نائمان.

(28)

جلس محمود ود الصارقيل فِي ركنه القصي المعتاد مِنْ مقهى ود الجنيد بسوق المدينة يضع ساقه اليمنى على فخذه اليسرى، لكنها لا تحسن التموضع وتنزلق بسبب بطنه المتمدد إلى خارج كنتور جسده القصير، ولا تمر دقيقة أو دقيقتان إلا ويمسح بمنديله الأبيض العريض على «صلعة» رأسة كماً هائلاً مِن العرق النابع مِنْها، وكان نفر مِنْ زبائن المقهى قد تسور حوله لينقل لهم آخر أنباء وأخبار «فريق بير الشيخ» والسوق وما جاورهما، لكنه اليوم على غير عادته لمْ يبدِ اهتماماً بفضولهم، يبدو شارد الذهن لا يرغب فِي الحديث، وينظر إليهم كأنَّه لا يراهم، أمر ما يشغل باله لا يعرفونه .. لكنهم يدركون أنَّ هذا الأمر عظيم لأنَّ مثله لا يستطيع السكوت إلى ما لا نهاية، وإنْ طال هذا الصمت على غير العادة، ولا بُد أنْ يكون لهذا السكون مسوغاً تزمجر بعده العواصف بلا توقف.

ظل ود الجنيد صاحب المقهى يراقب زبونه الطريف وهو صائم عن

الكلام لمدة ليست بالقصيرة .. وهو يدرك أنَّ حديث صاحبه وقدرته على جذب انتباه الناس يساهمان بقدرٍ عظيم فِي زيادة الطلبات مِن الشاي والقهوة وغيرها مِما يقدمه المقهى مِنْ خدمات .. نهض مِنْ مقعده خلف طاولة الطلبات، وأشار لأحد صبيانه ليقوم مقامه .. وسحب كرسياً وجلس فِي مواجهة ود الصارقيل ماداً صندوق سجائره إليه، وقال موجها إليه الحديث:

• مالك الليلة سكتم بكتم .. جابوا ليك خبرن شوم مِن البلد ولا شيتن تاني ..

سحب سيجارة مِنْ صندوق سجائر مضيفه، حركها قليلاً بين أصابعه دون أنْ يشعلها، ووضعها بهدوء خلف أذنه، وأجابه:

• لا والله يا ود الجنيد .. إلا أمس شفته حاجة تحير ..

صمت برهة مسح فيها نهر العرق مِنْ «صلعته»، ثم أردف:

• سبحان الله .. شفته خميس بكنس فِي الزاوية القصاد بيت العُشاري ..

أبدى ود الجنيد استغرابه دون أنْ يلحظ أنَّ المتسورين حولهما قد سقطت أفواههم، سأله ود الجنيد قائلا:

• خميس منو؟ وفيها شنو لو خميس أو غيره كنس الزاوية؟ زول عايز الأجر! الغريب شنو فِي كده؟

نظر إليه عجباً وقال فِي صوت خفيض وهو يميل باتجاهه ويتلفت

حوله كأنه لا يريد لأحدٍ أنْ يسمعه:

• خميس يأخي .. خميس الكلجة .. بتاع الزقاق يأخ ..

صمت برهة عاد بها إلى الوراء معتدلاً على كرسيه، واستدرك قائلاً:

• إت قايله خميس منو؟ ما تقولي قايله خميس الخدرجي؟ ولا خميس الأستاذ؟ لا .. لا .. بس القلته ليك ده ..

زاد اهتمام الجميع حوله وقد أظهرت ملامحهم أخلاطاً مِن الدهشة والعجب والاستنكار، لكنه حكى لهم عما سمعه مِن الناس خاصة زكريا الكباشي صاحب العُشاري الذي يعمل معه فِي المنجرة، قال:

• قبل مده جاء ومعاهو الرسن لي الدكان وكان فِي وقت صلاة المغرب كده .. الرسن عاشقة العُشاري مِنْ زمان وبتدور تعرسه .. بطلت شغل نسوان «الزقاق» فِي شانه .. إلا العُشاري ما عشمه .. المهم كانوا عايزين يصلوا .. بعد الصلاة لقوها والود الكلجة ده قالبنها بيت بكاء عديل .. احتاروا كلهم .. إلا العُشاري ما اتكلم .. وهي ذاته نست الجايابه ليهو شنو .. أهه .. العُشاري قالوا أدها باغة مليانة موية .. وأده زولنا ده واحدة زيها .. وقال ليهم كل واحد يستحمى بيها ويجيني بكرة كان صبحنا .. تاني يوم جوهوا الاتنين إلا الرسن جاته متبلمة بتوبن أبيض .. وزولنا جاه لابس جلابية بيضا زي جلاليبنا دي .. أهه زكريا قال لي العُشاري قرا ليهم لي صلاة الضهر .. وأداهم الفاتحة .. وقال لي خميس تعال أمسك نضافة الزاوية

.. وعمل ليه ماهية .. ومِنْ ديك الكلجة بقى شيخ .. يصلي الخمسة فِي الزاوية وساب الزقاق جت ..

قاطعه أحدهم قائلاً:

• سيبنا مِن النبي ده .. خلينا في الرسن سوت شنو بعد ده ..

أجابه:

• الرسن قالوا بقت شيخة عديل .. بطلت شغل نسوان الزقاق .. وبقت ماسكة فِي المصحف وقاعدة في التبروقة الليل والنهار ..

صمت برهة ينظر إليهم، وأردف:

• مو ده بس .. إلا سمعته إنها بتدور تسوي بيته جامع وسط الزقاق ..

قاطعه أحدهم:

• الله يكتلك يا ود سالمة .. عدمتنه نفاخ النار .. نحن نطير وين تاني .. يعني تاني زقاق ما في .. المرة المجنونة دي كان سوت الجامع ده .. البودينه هناك شنو .. الأذان يأذن ونحن نفجخ في النسوان .. ده كلام شنو يا ناس .. عات تاني إلا تعرسوهن .. واسمعوها مني .. نسوان الزقاق ما بقعدن يا طفشن يا تابن .. أبقوا عشرة علي نسوانكم في البيوت ما بتلقولكم مرة طفاشي تب ..

وانطلقت همهمات هنا وهناك .. بعضها يستنكر ويعجب .. وبعضها يسأل الله التوبة والغفران .. وبعضها لا يعرف أفي ذلك خير أم شر.

(29)

امتلأت نظرات التاية بت تاج السر إلى ابنتها الجودلية عجباً وتيهاً، وهي تحس بأنَّ سعادة ابنتها أعظم مِنْ تماثل زوجها إلى الشفاء أو حتى تجاوزه حدود الموت، كانت موفورة النشاط خفيفة الحركة، يحفها الدلال والغنج، ترتقي مرتقًى عظيماً مِن السعادة، تأملتها مرات دون أنْ تفصح ملامحها بغير السعادة التي تتراقص حتى خالتها تتشكل أمامها .. كانت سعادة الأنثى تتحرك أمامها بلا خجل .. تبدو واضحة فِي ابتسامها، وحديثها، وحركتها، وأنفاسها، سألت نفسها: «يا ربي البت دي ماله؟» .. لكنها لمْ تجد جواباً يشفي غليلها، أغمضت عينيها وقد ثقل رأسها دون أنْ تدرك سر هذا السعادة التي تشي بألغازٍ غامضة لا قبل لها بحلها، أرخت جسدها على العنقريب المفروش بفرشٍ جديد مزركش، تبدو فِي منتصفه زهرة كبيرة فرحة، فِي وسط حوشٍ الحريم، شاهدت الخادم العجوز ست الجيل تتثاءب فقالت مداعبة علها تخرج مِن أسر سعادة ابنتها:

• مالك يا عجوز؟ ما نمتي ليلة البارح؟

أجابتها بخبث لكن بصوت خفيض حتى لا تسمعها الجودلية:

• هي نان بتك بتخلينه نخت راسنا .. الليل كله تكورك .. حمتنا النوم ..

أيقظت كلماتها الخبيثة جميع حواسها، اعتدلت جالسة، وحدقت فِي ابنتها التي لم تنتبه إليها، غمزت بطرف عينها إلى ست الجيل، فتبسمت بخبث ونهضت مِنْ مكانها وتوجهت إلى داخل الدار، رسمت ابتسامة فرحة، وسألتها:

• يا بتي الدُّخري شن خبره؟

تنبهت الجودلية إلى أنَّ أمها تكلمها .. فتهتهت مستفسرة:

• قلتي شنو يُمه؟

أجابتها:

• لا ما فِي حاجة .. بس سألتك الدُّخري كيفنه؟

صمتت برهة ثم أردفت تسألها ثانية:

• خلى حوامة العنقريب؟

احمرت وجنتاها، وكساها الخجل حتى دمعت عيناها، أجابتها بصوتٍ خفيض:

• الحمد لله ما عنده عوجه ..

نهضت التاية مِنْ على عنقريبها وزغردت .. وجعلت تصرخ وهي

تبكي فِي سعادة، وتقول:

• تلحق بتي يا المبروك .. زي ما لحقت الدُّخري ود الضيين .. يشيل بطنه .. وتحبل فِي ليله ده .. تلحقه يا ود سالمة .. بي بركاتك .. وتديها الجنى الدايراهه وتضوقى وجع الولادة .. ندرن علي كان حصل الفي بالي إلا أضبح لي تور وأوزع لحمه على الفقراء .. وأشوم للرسول إنْ شاء الله يا الجودلية يا بت بطني ..

تمتمت الجودلية فرحة:

• عليه الصلاة والسلام .. إنْ شاء الله يُمه ..

دخلت الجودلية إلى غرفتها هاربةً مِن أسئلة أمها المحرجة، وجلست الأم على العنقريب والأفكار تداعبها .. يشيل بطن ابنتها بـ"الوليد» .. وانطلقت تسبح فِي بحيرات أحلامها .. وهي تحمل ابن الجودلية .. وهو يمشي خطواته الأولى .. وهو يلحق بالمدرسة .. تلبستها صفة الجِدة فسعدت بها .. وقد عاشت لأجلها مدة طويلة، تمتمت قائلة:

• اللهم أجعله خير .. تلحقنا يا ود سالمة ..

سكتت برهة ثم قامت وتوضأت وصلت ركعتين لوجه الله، ورفعت يدها داعية:

• يا قادر .. أديها الفي مراده ..

ثم جعلت تستغفر الله على ما اقترفت مِنْ ذنب.

(30)

بهتت نصرة بت عجوبة كودية الزار وانعقد لسانها، ولمْ تستطع أنْ تقول شيئاً مِما يعِن فِي صدرها، وقفت ذاهلة تردد طرفها الحائر بين جوقتها ودساتيرها، جمدت عيناها على طبولها ومزاميرها ودفوفها تبصر بعضها، وتعمى عنْ بعضها، ظلت هكذا حيناً وقد انصرف عنها الأمان والاطمئنان، ولمْ تدر أطالت بها حيرتها أم قصرت، كان الوقت ضحى وقد مال ميزان النهار والجو شديد الحرارة، والأصوات خارج الدار تتأرجح بين الخفوت والاضطرام، وصخب اليوم قد ارتفعت حدته، وبعض صبايا الكودية لا زلن نائمات، كانت تربط طرحة حمراء على رأسها مزينة ببعض الزهور الملونة كتلك التي يلبسنها بنات الريف اللائي يقطن الشمال، لمْ تكن تناسب حالها ولا سنها، قضت بعض الوقت على هذا الحال، ثم اتجهت إلى «برندة» واسعة وهي تتمتم قائلة:

• السويته فيني يا ود سالمة ما سواها زول! الله يوريني فيك يوم

.. ما فِي غير الكلس ما في زولن يجيب لي حقي .. يمسحه مسح مِنْ وش الدنيا .. الله ما يخلي ليك جنب ترقد عليه يا ود سالمة ..

سمعت صوتاً يأتيها مِنْ داخل إحدى الغرف، يقول:

• كلس شنو .. وعفن شنو .. إنتي ما بتوبي .. ده جراهم قدامه قبل ما يرفع إيده .. ود سالمة ده ما فِي راجل بقدر عليه .. ما ليك إلا كيد النساء ..

ضربت صدرها بيدها، وقالت فِي دهشة:

• سجمي! إنتي يالممسوخة دائماً كده سايقه بدون لجام ..

خرجت مِن الغرفة فِي لباسٍ خفيف قصير وهي تتثاءب وقال ساخرة:

• عارفة يا خالة .. إنتي صحي مرة كبيرة وشاطرة فِي شغلك .. بس ما بتعرفي قدر الأنا عارفاه .. الدنيا دي حاكمنها النسوان .. الرجال ديل شوية شنبات وحس عالي ساكت ..

زمت شفتيها وحركتهما ذات اليمين وذات الشمال مستنكرة، وقالت:

• أتي .. برِي مِنك .. برِي .. دايرة تقولي شنو؟ يا دُرية يا بت أختي ..

أجابتها ساخرة:

• قلت ليك ود سالمة ده ما فِي راجل بقدر عليه .. بقدرن عليه

النسوان .. شوفي منو منهن الممكن تركبيها وتخليها تسوي الإنتي دايراهو ..

قالت ساخرة:

• نسوان منو البقدروا عليه يا العايبه .. ما شفتيه عمل شنو فِي الرسن بت الزقاق .. عايني ليها .. بقت شيخة .. وبيته الفاتحاه زي أدبخانة السوق بقى جامع .. والجودلية مرة الدُّخري .. بعد ما دقيت ليها الزار مرتين ولبستها الخواجة واللولية .. ختاها تحت أباطو .. وبقت تحلف بيه بعد عالج راجله .. الراجل جابه مِن المقابر بعد فرشوا عليه .. ده ملعون .. ما خله ليه سفلي إلا ختاه تحت كرعينه .. الله ينتقم منه القطع عيشنه..

ضحكت محدثتها منها وقالت:

• ما قلت ليك يا خاله إنتي مرة طيبانة ساكت .. كيد النساء بس البجيب ليك حقك .. غير كده أنسي .. ود سالمة بجريك فِي الفريق أم فكو .. أعملي حسابك ..

سعت إلى غرفتها هاربة مستأنية، ومحدثتها دُرية ترمقها بنظرة مستعلية وساخرة، تحاول أنْ تنأى عنها بعيداً لتعاود التفكير فِيما قالت، وليتصل تفكيرها فِيه، كانت تقول لنفسها تريد إقناعها: «لو فينا ميزة نحن النسوان .. يبقى كيد النسا .. ميزنا بيه ربنا .. كيف فاتت علي الحاجة دي؟»، وإذا هي ترتاح لما حدثت به نفسها وتميل

إليه كل الميل، مددت جسدها على «عنقريبها» واتكأت على كفها تبحث عنْ وسيلة تمكنها مِن التحرك إلى الأمام خطوة تسيطر بها على عدوها الوحيد ود سالمة، همست لاعنة:

• الله يجازي محنك يا ود سالمة .. طلعت لينه مِنْ وين؟ أنا ناقصاك .. إنْ شاء الله تنشل ..

(31)

عاد الحاج نور الدائم شيخ العطارين إلى دكانه وسط سوق المدينة بعد أن أدى صلاة الظهر .. جلس على كرسيه خلف مكتبه بالدكان الكبير .. أخرج مسبحته .. وكر يسبح بها حامداً ومسبحاً ومكبراً ومحوقلا، أكمل تسبيحه وقرأ بعض أوراد الظهيرة، وطفق ينظر إلى زبائنه ويبتسم لهم فِي وقارٍ عُرف به، تناول كوباً مِن الماء واحتسى مِنْه شربة واحدة ووضعه فِي هدوء وهو لا يزال يبسم ذات الابتسامة الأبوية الوقورة، ولكنه بدا كأنه مشغول بشيءٍ ما، شيء خاص ومهم.

استرجع زيارته لدار العُشاري ولقاءه به وبأمه .. هذا الولد المبروك يجب أنْ يجد مكانًا يستحقه فِي «فريق بير الشيخ» .. وكيف لا؟ وهو أحد أولياء الله الصالحين يمشي بينهم، ويعمل معهم فِي الأسواق، وينام ويصحو كما ينامون ويصحون، وتظهر بركاته على الجميع دون أنْ يخص عظيماً أو وضيعاً، استغرق وقتاً طويلاً وهو يستعيد ذلك

النور الذي كان يضيء وجهه حين جلس قبالته يتحدث إليه، كيف فاته كل ذلك طيلة ذلك الوقت .. كادوا أنْ يضيعوه بلا سبب سوى نظرات الاستعلاء التي يرسلونها إلى غيرهم دون حق أو مستحق.

أحس بحالة انتشاء عظيمة وهو يتأمل ما دار بينهما مِنْ حديث عنْ شئون الفريق والسوق وكامل المدينة، كانت كلماته عظيمة وواعية بما يجري حوله .. كانت تبني ولا تهدم .. تدرك قدر الناس كبيرهم وصغيرهم .. وتنظر إلى مستقبلهم بعين فاحصة .. لا تحتمل جوع بعضهم ولا ظلم الآخرين .. لمْ يتحدث عنْ بركاته ولا معجزاته .. ولم يغش شيئاً مِن أحاديث التنجيم والتنبؤات التي يجترها الناس حين يذكرونه عاشقين أو منكرين.

تناول حبتين أو ثلاثًا مِنْ حبات البركة كانت على طاولة المكتب، ووضعها تحت لسانه برهةً ثم مضغها، وأتبعها بجرعتين مِن الماء، وتجشأ بعدهما وحمد الله، طاف بخياله حين خطبه لحفيدته الوحيدة بِشرِية سائلاً: «بتدور تعرس بِشْرِية؟» .. فأجابه بأدبٍ وهو يخفض عينيه: «آآي يابه .. بدور أعرسه .. لكن خايف أبوها يابه .. أو يفتكر إني دايره فضل لي علاجو» .. يبدو أنَّ الفتى يحبها لكن يمنعه مِنْ طلبها كونه كان سبباً سخره الله لعلاج أبيها .. سبحان الله .. سبحان الله .. لله فِي خلقه شئون .. عشقها حتى قبل أنْ يراها .. وبشر بها حين كان الجميع ينكرون قدرة أمها على الإنجاب.

كرت مسبحة الذكريات واستعاد ما سمعه مِنْ زوجته الضيين ذات مرة حين جاء ذكر ود سالمة: «ود سالمة شنو البنعرس ليه بِشرِية .. الوحيدة بت الوحيد .. تعرسو عشة أم ضنب .. وتلقاه فِي زقاقن ضيق .. شاحدة ربي .. وماني خاتية عليه ولا على أمه الما تامه ..» لكنها الآن تراه بطلاً بعد أن أنقذ ابنها مِنْ براثن الموت .. وبعد أن تمنت له «عشة أم ضنب» .. تتمناه اليوم لحفيدتها لكن ابنها لا يرضى به وينكر ما فعله مِن أجله .. وحجته أنَّ والده هرب مِن أمه وهام على وجهه دون أنْ يعرف أحد أين هو الآن؟ وهل هو حي أو ميت؟ وإنْ كان حياً هل سيعود أم سيغيب؟

صعب عليه فهم هذا الحال مِن الارتباك .. فالعُشاري لا يستريح مِنْ كد النهار كسائر أهل الفريق، ولا يرقد مطمئناً فِي ليله إلا بعد أنْ ينام الناس فِي بيوتهم آمنين، يعيش بينهم باشاً لا يرون مِنْه سوى الابتسام، كأنَّه لا يرضى لهم إلا بحياةٍ نقيةٍ رائعةٍ ليس فِيها مكان للعجز والخمول، حياة يتنسمون فِيها ربيع الطمأنينة، ويُقبلون فِيها على الدنيا ومَنْ فِيها، اشتعلت فِي نفسِه مشاعر متداخلة، فود سالمة لا يستحق مِنْهم سوى التقدير، تمتم قائلاً:

• إنْ شاء الله أعرسو ليك غَصِبْ .. الدُّخري ده ولدي أنا .. عارفه .. طول وعرض .. وبرضه عنبلوق .. ولدي وأنا عارفه .. تُخة بس .. ورأس قوي .. رابطين فوقو عِمه .. لكن فاضي ..

زول يقلعوه من الموت قلع .. الحمد لله ما يقوله .. تاني منو رجاء .. أستغفر الله .. أستغفر الله ..

لمْ ينصرف إلى ما انصرف إليه ابنه، وحاول أنْ يهتدي إلى علاجٍ شافٍ لإرضائه وإرضاء العُشاري، ليستقبلوا جميعهم ما يأتي مِنْ أيامهم بنفوسٍ راضية وقلوبٍ مطمئنة، اتسعت ابتسامته حين وصل إلى ما وصل إليه، ودفع إليه هذا إحساساً ببعض الراحة يناوش نفسه وأنفاسه، فتمدد على كرسيه خلف طاولة مكتبه .. ووقر فِي نفسه ألا يسمح لعواصف الشقاء أنْ تهب فتغشي قلب حفيدته، وتعصف بأمواج حياتها، فتصبح هائجة مائجة صاخبة، تجلجل رعودها وتعصف رياحها وتتدفق سيولها وتصطخب أمواجها، لتعيشها تعيسة حتى الموت، أو تميد بها الأرض فتدفن فِيها وهي لا زالت على سطحها .. همس وهو ينحني إلى الأمام ليتناول كوب الماء:

• الله غالب .. الله غالب ..

(32)

فجأة برد الجو دون مقدمات والخريف يشارف على الانتهاء دون أنْ ينزل مِنْ غيثه الكثير، والدُّخري يجلس على «تبروقة» الصلاة فِي حوش الرجال بداره الواسعة بعد أنْ قضى ما عليه مِنْ فرض، وما تبعه مِنْ نافلةٍ وما لزمه مِنْ دعاء، اقتعد عليها وهو يغطي نفسه بثوبٍ ثقيل، وكر بمسبحته دون أنْ يدعو بشيءٍ فِي آلية غريبة يسترجع ما ذكرته أمه الضيين بت الهميم وهما يتحدثان فِي أمر ود سالمة، الذي يصر على الزواج مِن ابنته الوحيدة بِشْرِية مِنْ طليقته فطين بت الناظر، كيف لمْ ينتبه إلى هذه الحقيقة؟ رغم أنَّ بِشْرِية قد سلخت أمام عينيه اثنين وعشرين سنةً مِنْ عمرها، إلا أنَّه لا أحد مِن أهله ولا مِن الفريق ولا الفرقان المجاورة تقدم لخطبتها رغم علمهم بجمالها ونسبها وحسبها ومالها .. إذن لِمَ لمْ يتقدم لخطبتها أحدٌ؟ كيف لمْ ينتبه لهذا الأمر؟ وكيف انتبهت أمه دون غيرها؟ شعر بالضيق فمدد ساقيه واتكأ على الحائط بظهره، ثم سحب

نفساً عميقاً وزفره بهدوء، عدل طاقيته ثم وضع ساعده على ناصيته، وهمس قائلاً:

• الله يقطع ولادة البنات .. ود سالمة حيَّر البت .. ملعون ود ملعون .. راجل واحد فيه فايده ما في .. على الطلاق كان جاني محمود ود الصارقيل إلا أديها ليه .. كيتن فيه ..

مر بخياله طيف ابنته وهو على هذه الحالة، أحس بضعفه أمامها .. ليس لديه غيرها .. يعلم أنها تحبه وتبجل أبوته .. وهو لا يريد أنْ يظلمها أو يقف فِي مواجهة اختيارها، لكن أيعقل أنْ تتعلق برجل لمجرد أنَّه تنبأ بولادتها؟ أخبرته أمه بتعلقها بالعُشاري وكيف أنَّها لا ترى غيره، وقد زاد تعلقها به بعد كرامة علاجه له .. وهو مَنْ بادر بذلك رغم أنه يعلم علم اليقين رفضه زواجه مِنْها إلا أنَّ المبادرة جاءت مِنْه .. كأنَّه على يقين بأنه سيوافق عليه .. ويرضى به زوجاً لابنته الوحيدة .. حتى الحاج نور الدائم .. يقف فِي صف ود سالمة .. أبوه شيخ العطارين يريد له أنْ يكون زوجاً لحفيدته الوحيدة كأنه لا يرى رجلاً مِن أهله أو مِن أهل «الفريق» أو مِن أصحابه فِي السوق أهلا للزواج مِنْها .. وكان أكثر ما يعجب له هو تحول أمه الضيين مِن النقيض إلى النقيض .. اقتربت كثيراً مِنْ سالمة وابنها .. وأصبحت سر ابنته .. والجودلية تبعتهم بلا تعب .. كغيرها، لمْ تعد ترى أحداً أحق ببِشرِية مِنْه .. ماذا فعل ود سالمة لكل هؤلاء

حتى أصبحوا جميعاً يقفون فِي صفه ويساندونه فِي طلبه ويرضون به صهراً؟

مَنْ هو ود سالمة هذا حتى يزوجه إياها؟ هجرهم أبوه ولمْ يره أحد إلا مرة واحدة طيلة هذه السنين .. ولا أحد يعرف لِمَ هجرهم.

سمع جلبة تأتي مِن ناحية دار النساء .. اعتدل جالساً .. دخلت عليه الخادمة العجوز ست الجيل، وقالت:

• الحاجة الكبيرة جات وبتسأل عليك يا سيدي ..

نهض مِنْ مكانه وأدخل قدميه فِي مركوبه، وقال:

• .. أهلاً بيها .. يلا نمشي عليها ..

رافق ست الجيل إلى الداخل، وحيا أمه كما يجب، فقالت:

• سلام يا مك .. كيفنك .. إنْ شاء الله طيب ..

أجابها:

• الحمد لله يُمه .. زارتنا البركة .. وكيف أبوي الحاج نور الدائم؟ إنْ شاء الله يكون طيب .. لي يومين ما شفتو .. شُغل السعية شغلني عنو وعن الدكان ..

أجابته:

• طيب ما عندو عوجة .. إلا كبر .. وبقى يهضرب براه .. وروحو فوق نخرتو ..

ضحك وقال مداعباً:

• الحمد لله يُمه .. استحملي شوية ..

تبسمت وقالت:

• نان ماشه أخليه لمنو .. دي عشرة عُمر يا ولدي .. هي مِن الليلة ولا أمس ..

أحس بصدقها والدمع يترقرق مِنْ بين جفنيها .. فضمها إليه وأحس بدفئها.

(33)

تناولت الجودلية كوب الشاي «الأحمر السادة» بنكهة القرفة والمستكة، ورشفت مِنْه رشفة فِي صوتٍ عالٍ قبل أنْ تلتفت إلى الخادم العجوز ست الجيل وتنبهها إلى طرقات الباب الخارجي التي لا تسمعها، تحركت الخادمة بقدمٍ ثقيلة وهي تضع يدها على جنبها كأنَّها تريد أنْ تسنده، كان الصبَّاح قد شاخ وأقبل الضحى وهو يسرف فِي الضياء ويفرط فِي السخونة .. غشت مطبخ الدار وتناولت «حلة» كبيرة، واتجهت نحو الباب .. لاستقبال سيد اللبن .. فقد تأخر كثيراً عنْ موعده والدار تحتاج إلى بعض أرطالٍ مِنْ حليب الأبقار الطازج .. حتى سيدتها لمْ تستطع الانتظار واستبدلت شاي الصباح الممزوج بالحليب «المقنن» والجنزبيل بالشاي السادة، فتحت الباب الخارجي واشترت ما يلزم مِن الحليب الطازج وكرت عائدة إلى المطبخ بعد أن أغلقت الباب، همست لنفسها وهي تضع «حلة الحليب» على «المنقد»:

• يا ربي البنية دي ماله؟ بقت تهب فِي الراجل بي سبب وبدون سبب .. كرهته عيشته.. الله يكون فِي عونك يالدُّخري يا ولدي .. يعني يا كل يوم .. يا الله قال بي قولك .. النسوان الخميس ما لاقياتنه .. قهرتكن بي علي نسيب النبي يا بنات الزمن ده .. بقيتن قاهرات وما بتخجلن .. نسوان كمبا بس ..

وقفت فِي مكانها أمام «المنقد» تنتظر أنْ يغلي الحليب حتى يمكنها أنْ تحفظه أو تستخدمه كما تشاء، لا يزال عقلها مشغولاً بالجودلية وتغير سلوكها المفاجئ مع زوجها الدُّخري، لمْ تفهم سبب هذا التغير بعد أنْ تعافى الدُّخري مِنْ جميع أمراضه، وهي تقر بأنه عاد إلى سيرته الأولى معها .. رجلٌ كامل الدسم .. يقضي واجبه كما يجب .. كل هذا بسبب كرامات ود سالمة، همست مرة أخرى وهي تتلفت كأنها لا تريد لأحدٍ أنْ يسمعها:

• مرة ما بتسمع الكلام .. تشوف بي عينه وتكضب كلامي .. كلمتها مية مرة إلا الراس قوي .. ولادة ما فِي كان ما مشت لي المبروك شان يعالجه ببركته .. ده ولي عديل .. تلحقنا يا ود سالمة ..

صمتت برهة وهي تتلفت:

• أقعدي فِي عوارتك دي لما تقطعي .. كان ما قرا لي بطنك .. ومسح عُرانك .. الولادة إلا تشميها قدحة .. نفسك فيهو وخايفه الهبش .. عات ده يقولوا عليه شنو ..

غلى الحليب، فتناولت قطعةً مِن القماش وحملت «الحلة» ووضعتها على طاولة أمامها، وجلست تنتظر أنْ تنخفض درجة حراراته بعض الشيء، سمعت طرقاً جديداً على الباب فنفخت هواءً ساخناً واتجهت إليه لترى الزائر الجديد، فتحت الباب فإذا أم الجودلية وخالتها يقفان أمامها مبتسمتين .. رحبت بهما بصوتٍ خفيض قائلة:

• بنات تاج السر .. أهلن بيكن .. اتفضلن يا التاية ويا ست النفر .. إلا حسكن عندكن ما فِي واحدة فيكن تفتح خشمه إلا بعد أفش غبينتي ..

تبادلتا النظرات ثم اتسعت ابتسامتاهما وكتمتا ضحكتيهما، لكنها لمْ تتركهما بل قادتهما إلى المطبخ وأسرت لهما:

• هيي يا بنات تاج السر وعَنْ بتكن دي .. الليل والنهار ناطة فِي حلق الراجل .. كرهته العيشة ..

استغربتا فبادرتها ست النفر سائلة:

• سجمي! ماله ..

أجابتهما وهي تزم شفتيها وتحركهما ذات اليمين وذات اليسار، قائلة:

• ما بعرفه .. إلا بقت يوم تنوم معاه وعشرة لا .. تكورك ليلة كله معاه .. وتبكي عشرة لمن تبقى براها .. ألحقن بتكن ما تجن ليكن ..

أحست التاية بضيق شديد وألم وهي لا تعلم ماذا ألم بابنتها، أسرعتا

إلى الداخل، لمْ تتبعهما لكنها تناولت «حلة الحليب» ووضعتها فِي نملية المطبخ، صنعت شراباً مثلجاً مِنْ عصير الليمون فِي كوبين زجاجيين كبيرين، وحملتهما فِي عناءٍ واضح على «صينية الألمنيوم» .. واتجهت إلى حيث يجتمعن وهي تتمتم:

• الله يهديك يا بتي .. ويكفيك شر العين ..

وخرجت إليهن وهي تقرأ الإخلاص والمعوذتين.

(34)

شعرت التاية باستياءٍ شديد وابنتها تستقبلها على غير عادتها بفتورٍ لا يطاق، أشعرها بالحرج فِي وجود أختها ست النفر .. مما استدعاها لاختلاق أعذار واهية لإنهاء الزيارة والادعاء بأنها تذكرت أمراً يجب عليها قضاؤه قبل صلاة الظهر .. وأحست ست النفر بحرج أختها، فتناولت كوب الليمون المثلج على عجل، ودعتاها، والأم تأمل أنْ تعود لتلتقي ابنتها منفردة، مرت الدقائق والساعات بطيئة عليها، وذهنها لا ينفك يجتر صورة الاستقبال الفاتر والحالة السيئة التي التقتها عليها .. تمتمت بألم: «لا .. لا .. الجودلية ما براها .. سحروك راسه عديل يا بتي» .. وحبست دمعة كادت أنْ تسيل، وتسكعت فِي مخيلتها أخلاط مِنْ مشاعر الإحباط واليأس وهي تحس بها تتصرف على غير طبيعتها كأنَّ هنالك قوة ما تسيطر عليها .. قوة لا تدريها ولا تعرف شكلها ولا هيأتها .. لكنها تشعر بوجودها تحوم حول الجودليه أين حلت ولا تستطيع أنْ تمنعها، ولا تقدر على ردها، ولا

أنْ تهملها أو تتجاهلها، لا يوجد سبب واحد لافتعالها المشاكل مع الدُّخري .. عاد الرجل إلى تجارته الجديدة يشتري الماشية ويبيعها .. وقد أثمرت تجارته وأصاب مِنْها مالاً عظيماً .. واشترى ذهباً كثيراً أهداه للجودلية التي يحبها ويسعد بها .. وشاركته الفرحة لأنها تحبه وتعشقه .. وسعدت بهديته واهتمامه بها .. فماذا حدث؟ فجأة! تنبهت لطرقٍ شديد على الباب الخارجي للدار .. طرق مزعج يكاد يخلعه مِنْ مكانه .. أحست بهلع عظيم .. وتناولت ثوباً لفته حولها ووضعت طرفه على رأسها ليغطِّيه فِي إهمال .. وأسرعت ناحية الباب .. إلا أن الطارقة لمْ تنتظر .. ودفعته بقوة فانفتح على مصراعيه .. رأت التاية ابنتها الجودلية تندفع إلى داخل حوش النساء بحالة يرثى لها .. وهي تبكي بحرقة، صرخت الأم فزعة:

• .. سجمي! مالك؟

لمْ تجبها لكنها ارتمت على «العنقريب» تبكي، فازداد قلقها عليها وكرت تسألها:

• مالك يا بت؟ الدُّخري كويس؟

أجابتها بصوت خفيضٍ متقطع:

• ما تجيبي لي سيرتو يُمه .. وآآآي أنا .. وآآآي .. الدُّخري بدور يعرس فيني!

كادت التاية أنْ تسقط مِنْ هول الصدمة، لكنها تماسكت وسألتها

بحزم:

• يا بت إتي مطرطشة .. عرس شنو الداير يعرسه الدُّخري! جبتي الكلام ده مِنْ وين؟ كلمك؟ قال ليك داير أعرس؟

انتفضت واقفة وهي تصرخ:

• هو فِي راجل بكلم مرته يقول ليها داير أعرس فيك .. ما الواحدة بتكون قاعدة فِي أمانة الله .. وبجيبوا ليها خبر الشوم ..

ضاقت بها أمها وقال بحزم:

• ده كلام جن ساكت .. ما تلعبي بالنار وأبقي عشرة على بيتك..

صرخت:

• بيت شنو يُمه البقى عليه عشرة تاني .. العفن ده شمه العافية ونسى حوامة العنقريب .. وبدل يقعد فِي المصلاية ويحمد ربه .. جاري للنسوان .. ما دام كده .. أنا ما زي فطين أنتظر لمن يطلقني .. يطلقني هسع دي قبل ما يدخل عليها .. شاحدة الله يموت حيلك يالدخُري يا ود الضيين بت الهميم ..

أحست أمها بضيقها فحاولت تهدئتها:

• استهدي بالله يا بتي .. طلاق شنو بعد العمر ده البتفتشيه .. صبرتي الزمن ده كله معاه بلا جنى .. داير تتطلقي بعد ده ..

قالت بحدة وغضب:

• آي .. دايره أتطلق بس .. ما عايزاه تاني .. طلقوني منو .. أصله

الراجل مِنْ ما تعملي ليهو راس وقعر بيركب فوق ضهرك ويدلدل كرعيهو .. أريتو كان مات .. الله يلعنك يا ود سالمة الجبتو راجع تاني من القبر .. أهه خم وصر .. بعد ده كلو ما بي يعرس ليك بته .. راجل فقر الله يكتلك يالداير تكتلني .. سمح بنشوف .. أكان ما بقيت ليك شوكة حوت .. لا تنبلع لا تفوت .. تف عليك .. خاتية عليك الدنيا كان بقتك تاجر بقر ..

(35)

علمت التاية مِن ابنتها، بعد أنْ هدأت نفسها وأسلست قليلاً، عنْ زيارة نصرة بت عجوبة كودية الزار لها منذ شهر أو نحوه، وأنها من أخبرتها بنية الدُّخري فِي الزواج مِن أخرى، والعروس الجديدة ليست مِن الفريق .. بل هي بنت لأحد تجار الماشية الذين يتعامل معهم فِي تجارة «السعية» الجديدة، وزادت أَنَّ هذا مِنْ تأثير السحر الأسود الذي استخدمه العُشاري ود سالمة لعلاج زوجها، وأنَّ مِنْ دواعي هذا «العمل» أنْ تزداد فحولة الرجل فيحتاج إلى المزيد مِن النساء ليشبع جسده، وإلا سيعود كالخصيان، أصابها الخوف وجعلت تتفل على يمينها ثلاثاً وعلى يسارها اثنتين، وتستعيذ بالله مِن الشيطان الرجيم، لكنَّ الكلام لمْ يبارح مخيلتها، فالجودلية أخبرتها أيضاً عنْ فحولة الدُّخري منذ تم شفاؤه على يد المبروك، وكيف أنَّ حاله قد تحسن كثيراً فلمْ يعد «يحوم على العنقريب ككلب الحر» .. بل إنها أصبحت أعظم قدراً مِن أيام فتوة الصبا وقوة الشباب

.. كيف حدث ذلك؟ والمبروك ما فعل شيئاً سوى أنَّه عالج قدمه وساقة أفضل مِن أطباء المستشفى مجتمعين، لمْ تجد جواباً لسؤالها .. هل يمكن أنْ يكون قد عالجه بالسحر الأسود؟ فشفي وأصبح أكثر قوةً وفحولة .. لكن! أبعد كل هذه السنين يتزوج على ابنتها؟ فجأة تبدى لها طيف فطين بت الناظر، فتمتمت قائلة:

• الدنيا سدادة يا بتي .. والدين كان طال الزمن ولا قصر لا بُد يجي اليوم الينسد فيه .. ده السويناه زمان فِي بت الناظر ..

وعاشت ساعتها تلك ومخليتها تعج بأفكارٍ صامتة تسعى إليها مبطئة، لكنها تثير الكلام، وتتصرف فِي عقلها حتى أدركها بعض الجهد، ومشاعرها المتنازعة تطعمها وتسقيها فِي غير دعة وغير رفق، حاولت أنْ تتلطف بنفسها وتسلمها لقيلولة الظهيرة، لكنها لمْ تستطع وتقلبت على «عنقريبها» لكنها لمْ تقدر، نهضت واقفة كأنها قد أرجأت النوم إلى الغد أو بعد الغد.، تناولت ثوبها وعقدت طرفه الأيسر الصغير مع جزء صغير مِنْ طرفه الأيمن الكبير حول خصرها، ولفت ما تبقى مِنْ طرفه الأيمن مِن أمامها حول جسدها ثم رمت «جدعته» على كتفها الأيسر. .. وهرولت إلى بيت أختها ست النفر حتى تسر إليها بمكنون صدرها .. فهي ما عادت تطيق صبراً ..

وجدت الباب الخارجي لبيت أختها مواراباً فدفعته بيسراها

ودلفت إلى الداخل، التقتها ست النفر حفية بها مشوقة إليها، وقامت بضيافتها كما يجب، لاحظت ست النفر انشغال أختها بشيءٍ ما لا تعرفه، حاولت أنْ تسيطر على فضولها لكنها لمْ تستطع، فسألتها مباشرة:

• بِسْ! مالك تتلفتي زي كدايس المتابخ .. جايبه ليك شمار ولا شنو ..

لمْ تحتمل أكثر مِما احتملت، فانفجرت باكية .. وقالت وهي تمسح دموعها:

• وآآآآي يا ستو .. الدُّخري بدور يعرس في الجودلية!

ضربت بيدها على صدرها وصرخت:

• خبر الشوم يا التاية! ليه .. سوت شنو شان يجازيها بي ضرة ..

نظرت إليها وهي لا تزال تبكي، وقالت:

• الدنيا سدادة يأختي .. ده حق فطين ..

وانداحت التاية تحكي لأختها كل ما تعرفه عنْ نية الدُّخري فِي الزواج مِن أخرى، وأسندت ذلك لأسبابٍ كثيرة منها السحر الأسود، والفحولة، والولد وغيرها مِن الأسباب.. سألتها ست النفر قائلة:

• يعني هسه ليك ساعتين تلتي وتعجني والكلام ده جابتو نصرة بت عجوبة .. وشايله حايمة مِنْ بيت لبيت تقشقشي فِي مخاخيتك ..

أجي يا بت أمي .. لا إنتى ولا بتك ما سمعتنه مِنْ خشم الدُّخري .. سجمكن يا نسوان يا فارغات .. باين عليك خرفتي يا بت أمي .. لا .. لا .. أتلومتي عاد ..

نظرت إليها التاية عجبة، وسألتها:

• يعني الدُّخري ماشي يقولينا عايز أعرس في بتكم؟

أجابتها:

• والله .. والله .. إنتن جنيتن .. الدُّخري كان داير يعرس ما بدسه .. مالك .. ما بتعرفيه .. لسانه أغلف .. وما بخاف مِن النسوان .. زمان ما دساه .. وهسه كان دايره ما بدسه ..

(36)

انعقد لسان الضيين بت الهميم فلمْ تجد ما تقول، كأنَّ الكلام قد هرب مِنْها دون أنْ يترك أثراً، وظلت واقفة واجمة ذاهلة تردد نظراتها بين الحاج نور الدائم وبِشرِية حائرة وغير مصدقة، أسندت رأسها على كفيها وهي تجلس على «بنبر» كبير فِي البرندة الداخلية، والحاج نور الدائم يقف قريباً مِنْها متكئاً على عصاته بيسراه، مكراً على مسبحته بيمناه، يزفر هواءً ساخناً مِنْ رئتيه .. لا يعرف كيف يجيب نظراتها المحتارة، وبِشرِية كجدتها ملتبسة مترددة بين تصديق ما سمعوا وتكذيبه .. نظرت الضيين إلى زوجها، وسألت قائلة:

• شن قولك يا حاج؟ عاجبك البعمل فيه ولدك؟!

التفت إليها بآلية، وأمسك عنْ مسبحته وحشرها بهدوء فِي جيب «العراقي» .. وتنهد تنهيدة طويلة واستغفر الله، اتجه إلى كرسي كبير بجانبها وجلس عليه، وقال:

• الكلام الجبتيو أنتي وبت ولدك ده ما راكب عدله .. وكان عاقلات كان عرفتن إنه خصيمك يبين ليك فِي مضغ البليلة ..

لكنكن ناقصات عقل ودين ..

تبسمت بِشرِية فِي وجه جدها وسألت جدها:

• قلت البليلة ماله يا جدي؟

ما إن سمع سؤالها حتى انفجر ضاحكاً ملء شدقيه، وسعل سعالاً شديداً فأسرعت حفيدته وناولته كوباً مِن الماء .. شرب مِنْها شربتين واستغفر الله ثم مسح دموعه التي جرت بطرف «العراقي» .. وأجابها قائلاً وهو ينظر إليها نظرة حانية:

• المعنى يا بتي .. الما الدايرك فِي الضلمة بحدر ليك .. الكلام ده جابته ليكن نصرة كودية الزار .. ودي ما فِي زول عاقل بصدق كلامه ..

صمت برهة، وأردف:

• الدُّخري ولدي وأنا عارفه .. ما بعمله بالدس .. كان داره بقوله ليكن فِي وشكن .. رضيتن ولا أبيتن .. كلمن الجودلية تشيل الكلام ده مِنْ راسه .. وما تسوي سوات كان دارتك تسوي قليلك فوت .. وإن ابتك تداعيك بالموت ..

ضحكت بِشرِية مرة أخرى بعد أن أحست بالراحة، وقالت كأنها تريد أنْ تحث جدتها لمشاركتها الحديث:

• غايتو يا حبوبة جدي ده عنده كلام .. أصلي ما بفهمه .. الله يطول فِي عمره ويديه الصحة والعافية .. ويطول عمرك كمان ..

قاطعتها مبتسمة:

• وأشوفك في بيت المبروك .. شاحده ربي ..

تسارعت الدماء الخجلى لتسكن خديها الأسيلين ولتحمر نونتيها باللون القاني، وغطت وجهها بطرف طرحتها الزرقاء، لكنها لمْ تستطع الوقوف على قدميها أمام جدها فأطلقتهما للريح هاربة مِن ابتسامته الحانية، واتسعت شفتا جدتها وهي تزكيها بعينين آملتين .. قال الجد وهو يشير بعصاته باتجاه حفيدته الهاربة:

• على بالطلاق إلا أعرسك للعُشاري .. كان رضي أبوك ولا أبى..

حدقته الضبين بنظرة حانقة، وقالت غاضبة:

• بِسْ .. كمان بتحلف بالطلاق قدامي .. إت جنيت يا نور الدايم؟

ضحك وربت على ظهرها قائلاً:

• بتخافي مِن الطلاق يا ولية؟

تمتمت بصوتٍ خفيض وهي تزم شفتيها وتحركهما ذات اليمين وذات اليسار:

• الجن بدااوه .. كعبة الإندراوه .. إلا ده خرف عديل ..

سمع همهماتها، فتبسم وقال مداعباً:

• أنا قُتْلِك زمان .. أنا بموت وأتي بتمِي حبس ..

أحست بصدق كلماته فأسلست نفسها وهدأت، ومسحت دمعة هاربة بكفها قبل أنْ يراها.

(37)

تمضي الأيام متسارعة كما تحسبها نصرة بت عجوبة .. تشعر بأنَّ خطتها تسير بنجاح .. لنْ يهنأ ود سالمة بالنُجح ولا بُد مِن إيقافه .. جعلت تطيل النظر فِي صاحبتها التي نصحتها بكيد النساء وهي متمددة على «العنقريب» .. كعادتها تنوم ملء جفونها .. تمتمت بفخر: » ندرن علي يا ود سالمة ما تخش على بت فطين ولا تضوق الجرتق كان تموت» .. تململت درية بنت أختها الراقدة وقالت فِي صوتٍ ناعٍ:

• خِفي شوية على نفسك يا خالة .. لسه بدري .. ما تفرحي شديد .. كان دقستي .. ود سالمة أمه بتجرتقه .. وانتي بتسفي الجردقة ..

انتفضت مِنْ مكانها وصرخت:

• الله يلعنك يا الممسوخة .. ويمسخ عيشتك زي ما مسختي علي يومي .. وبركة الأسياد الجرتق ما تضوقيه إنتي زاتك ..

نهضت درية متكاسلة وقالت بغنج:

• ليه كده يا خالة نصرة .. أهون عليك .. كله إلا الجرتق .. تفي مِنْ خشمك .. تلحقنا يا ود سالمة ..

قاطعتها قائلة فِي غضب:

• لواية تزوزي بيك مِن إسبتالية لي إسبتالية .. وشاحدة سيدي الحسن يلحقك أمات طه ..

ضحكت درية مرة أخرى كأنَّها تستعذب غضبها وحنقها، وقالت:

• يخسي عليك يا نصورة .. والله بالغتي عديل كده .. لكن بكرة الفولة بتنملي والبقارة بجوا صادين ..

نظرت إليها بحنق، لكنها لمْ تستطع أنْ تستمر وهي تطيل النظر إليها فافترت شفتاها عن ابتسامة حائرة، وقالت:

• أسوي شنو غير أقول ألمي البارد بقد الدلو .. غايتو زول غيرك كاتل حيلي ما في .. يوم بتكتُليني عديل يالممسوخة .. لكن أرجع أقول البِلد المحن لا بُد يلولي عياله ..

ضمتها إليها بدلال ظاهر وقالت وهي لا تزال تستدعي حنقها:

• قالوا لي ود سالمة شحن بطاطير راجل الجودلية .. بقت كهربته شغالة ليل نهار .. وآآآآي .. الرسول يا نصور الراجل ده ما مبروك .. ينزل الوِردة .. ويرفع الضغط .. تلحقني يا ود سالمة وتنزل حمتي وترفع ضغطي ..

صمتت برهة وهي تنظر إليها ساخرة، ونصرة تزداد حنقاً وغضباً،

أردفت:

• النبي فوقك يا خاله .. صحي راجل الجودلية بقى ما بهجس كلو .. كلو .. يوم واحد بفطو ما في .. قادر الله ..

أجابتها وقد اشتد عليها الغضب:

• انطمي يا قاهرة .. خلاص .. جاتك الحالة .. سويتيها «يا فطومة سلي سروالك» .. الله يسد نفسك زي ما سديتي نفسي .. بدل ما تساعديني .. تقومي تفوري بطني ..

أحست بأنَّها قد جاوزت الحد .. وأنَّ نصرة لن تحتمل أكثر مِنْ ذلك .. اقتربت منها .. وقالت:

• ما تزعلي مني يا خالة .. أنا بهظر معاك ساكت .. ما عايزاك تهمي كتير .. إنتي ماشة كويس .. زيدي شوية كجور وشدي على الجودلية شوية .. ونصيحة مني ليك يا أحلى خالة .. شوفي آدم عنقرة .. عارفاه .. وراء سوق المدينة الكبير .. يعمل ليك عمل عشان البت الدايره ود سالمة .. وإنتي عارفة الباقي .. وتاني بذكرك .. سيبك من الرجال أبين عضلات ديل ود سالمة بلبسن ليك تياب .. وخليك فِي العمل والكجور وكيد النساء ..

انتابها فيض مِنْ راحة .. وتبسمت قائلة:

• قومتي نفسي يالممسوخة .. بس أنا بريدك يا معفنة ..

(38)

وقف خميس القرمبع على بُعيد خطواتٍ مِنْ غرفتي النساء الملحقتين بمسجد الفَقِيرة الرسن بالزقاق القديم الذي اكتسب اسماً جديداً عُرف بـ"زقاق العِفة» .. فقد اختفت أميرات المتعة .. وتغير الساكنون وتغيرت الأهواء وسمت الروح بالأجساد .. تردد خميس القرمبع قليلاً، لكنه نادى بصوت خفيض:

• ستي الرسن .. خالة الرتينة .. سلام ..

خرجت إلية الخالة الرتينة ملثمة الوجه .. غض بصره وقال:

• سلام يا خالة .. بدوركن فِي خبر مهم ..

قالت ترد تحيته وتجيبه:

• سلام يا وليدي .. عساك طيب .. خير إنْ شاء الله ..

تلفت حوله، وقال فِي صوتٍ خفيض:

• مِنْ مدة سامع كلام عنْ ناس مِن الفريق بدور أكلم بيه ستنا ..

نظرت إليه بعجب ودهشة، فأكمل قائلاً:

• نصرة بت عجوبة شيخة الزار حايسة فِي الفريق مِنْ بيت لي بيت

تعمل فِي المغارز .. وتوقع بين الجودلية وراجله .. ومسلطة عليهم آدم عنقرة وأعماله وسحره الأسود وكجوره ..

قاطعته قائلة:

• كلام عجيب .. بس نحن دخلنا شنو ..

أجابها سريعاً وهو يتلفت:

• دخلنا ونص .. المرة دي قاصدة المبروك .. ما ناسية العملو فِيها ..

قالت بعنف:

• أهه قمته لي كوجينك .. المبروك دخله شنو ..

لمْ يأنس لردها، فقال:

• إت ما دايرة تفهي .. عايطي لي ستنا خليها تجي شان أكلمه ..

انتهرته قائلة:

• أبيت .. ستك نايمة هسه .. يا تحكي .. يا تمشي وتجيها وقت الأرتيق ينقضي ..

أجابها ساخراً:

• هي نان الضحى ما راح .. العصر دخل .. الحكاية شني ..

قالت بحزم:

• شنينة أم قرينات .. يا تتكلم يا ولد .. يا تمشي تقعد تخدم فِي رجال المسيد .. يلا غور ..

دلفت الخالة الرتينة بت الكُع إلى غرفة الرسن فوجدتها تنتظرها

بفارغ الصبر، لامتها أول الأمر على كذبها على خميس القرمبع بادعائها نومها، ونبهتها أنَّ المسجد ليس مكاناً مناسباً للكذب، استغفرت لنفسها ولخالتها، وسألتها أنْ تحكي لها ما دار بالتفصيل، وحكت لها الرتينة ما تريد عنْ كل ما يدور فِي الفريق .. وعودة نصرة بت عجوبة، وعلاقتها بآدم عنقرة، وعلاقتها بالجودلية، ونية الدُّخري فِي الزواج مِنْ ثانية، وطلبها الطلاق مِنْه قبل أنْ يتزوج مِنْ ثانية، وإنكار الدُّخري لهذه النية ورفضه تطليقها.

لمْ تجبها لكنها خطت إلى داخل المطبخ الصغير الملحق بغرفتيهما، وتناولت بعض حبات الطماطم والبصل وبدأت فِي تقطيعها بهدوء وهي تفكر فيما نقل إليها مِنْ كلام، وخميس الذي يؤكده لأنه تتبعها حتى بيت الدُّخري وسمع مِن الخادمة العجوز ست الجيل، كانت تعرف نصرة بت عجوبة جيداً ، لكنها لمْ تستطيع الربط بين خراب بيت الجودلية والإضرار بالعُشاري المبروك .. بشرية هذه هي بنت فطين طليقة الدُّخري منذ أكثر مِنْ عشرين سنة وليست ابنة الجودلية .. وهي بهذه الطريقة لنْ تستطع منع زواجها مِنْه .. إذن لِمَ حشرتها هنا؟ بالتأكيد نصرة تعلم برفض الدُّخري لزواج العُشاري مِن ابنته .. والأحرى بها أنْ تلعب على الدخري نفسه لا زوجته .. فماذا تستفيد مِن التفريق بينهما؟ ولِمَ تحاول التركيز على فحولته الزائدة؟ تمتمت قائلة:

• .. خلاص قمتي تاني لي خرمجتك يا نصرة .. بعرفك كويس ..

الله يجازي محنك يا ولية .. ويكفينا شرك ويقهمك .. المبروك كان قبل عليك بوريك المكشن بلا بصل ..

وضعت طبق السلطة على الطاولة ونظفت المكان بقطعة قماش، ثم أضافت قليلاً مِنْ «الدكوة» .. وشيئاً مِن الملح والشطة، وعصرت عليه شيئاً مِن الليمون، وبدأت تعجن الخليط حتى استوى كما تشتهي .. لعقت أصابعها .. وزانته ببعض قطرات مِنْ زيت السمسم .. ثم غطت الطبق وحفظته داخل النملية، تمتمت مرة أخرى:

• لازم العُشاري يعرف .. الولية دي راس هوس .. وراكبنها الشياطين .. محل ما تقبل تقوم زي العميوق ..

سمعت الخالة الرتينة بت الكُع تقول:

• الله يكفينا شر المرة أم ديودن زي ديود الغولاية ..

التفتت ناحية الصوت فوجدتها تقف بالقرب مِنْ باب الغرفة تحمل صينية بها بعض أطباق الطعام، حملتها عنها، وابتسمت لها، وضعت الصينية على الطاولة .. وأخرجت طبق السلطة مِن النملية وضمتها إلى المائدة، جلستا تأكلان، رفعت الرسن يديها بالدعاء قبل أنْ تمد يدها للأكل، ودعت قائلة:

• ربنا يعدله عليك شقيش ما تقبل يا العُشاري يا ود سالمة .. ويغتيك مِنْ عيون الناس ويكفيك شرهم .. آمين يا رب العالمين ..

وقرأت الإخلاص والمعوذتين وبسملت داعية رفيقتها إلى الطعام.

(39)

أدركت الخالة الرتينة بت الكُع أنَّ الرسن بت السبَّال لا زالت عاشقة ولنْ تستطيع أنْ تنسى حُبها للعشاري وإنْ تغير حالها، فالأنثى تظل أنثى مهما كانت، سلطانة فِي الهوى أو خادمة فِي المسجد .. يتسكع الفرح فِي ملامح وجهها حين تقابل حبيبها، وتنطلق أساريرها حين تقع عيناها على عينيه، يتهدج صوتها حين ترسل إليه همساتها .. وتحمر وجنتاها حين تلامس يداها يديه، ها هي عائدة مِنْ عنده .. تكاد لا تمشي .. بل كانت تطير مِنْ على الأرض بأجنحة مِنْ شوق لا يكاد يبرأ أو يشبع .. ناعسة الطرف، مرتعشة الشفاه، حالمة الابتسام، تعرف أنَّها لا تأمل فِي هذا الحب المجنون كثيراً لكنها لا تستطيع منعه ولا تقدر عليه .. تعيشه جنةً لا تطاق وناراً يصعب البُعد عنها .. تحياه بكل جوارحها لكنها لنْ تشبعه ولنْ ترويه .. وستعيش بقية عمرها هكذا عاشقة ومتبتلة فِي محراب ود سالمة المبروك.

تناولت الرتينة مِبخرها الفخاري، ووضعت عليه بعض الجمر الصغير الحجم، وغذته بشيءٍ مِنْ بخور التيمان وأضافت عليه المزيد

مِن اللبان «الضكر» وعين الديك، وبدأت ترقيها مِنْ عين الحسود داعية: «يا عين يا عينِية .. يا كافرة يا نصرانية .. أخرجي مِنْ بنيتي .. الرسن بت السبَّال .. مِنْ عين المره الكافوت .. العجوز اللافوت .. القاعدة غرب البيوت .. عين مَنْ فكر وذكر .. قديها بالفلفل الضكر .. أخرجي» .. سألتها وقد ضاقت بالبخور: «ده بخور تيمان؟» .. أجابتها: «آآآي .. عين الحسود فِيها عود» .. قالت تقاطعها بضيق: «اتي ما عايزاني أعرسه يا الرتينة .. شيلي الكلام الفارغ ده .. ما عارفة بخور التيمان بي يبور النسوان .. ختي لي بخور جاولي .. الله يرضى عليك» .. تحدرت دمعة سخينة مِنْ عيني الخالة، وتمتمت بصوت خفيض: «لسه مأمله فيهو يا بتي .. وهو باقي علي بِشرِية بت فطين .. أقول شنو عاد .. ربنا يكفيك شر نفسك ويديك الفي مرادك» .. نظرت إليها كأنها تنظر إلى الأفق البعيد وهمست: «ما تخافي يا خالة .. أنا ما دايراه فِي الدنيا الفانية دي .. أنا دايراه فِي الجنة إنْ شاء الله .. خليه يسعد بيها هنا .. شان يفضى لي هناك» .. مسحت بطرف أصبعيها تلك الدمعة الهاربة، ونظرت إليها بحب، وقالت وهي تشيح بوجهها حتى لا تراها باكية أو متأثرة: «أحكي يا الرسن .. فضفضي يا بتي».

قالت وهي تنظر بعيداً: «قبل ما أقول الفي جواي .. بدور اتبرد يا خالة .. حاسه بإني مِيروده .. وبدور أصلي لي ركعتين .. الشفته الليله

عند ود سالمة .. ما ظنيت تاني أشوفه» .. اتجهت إلى الداخل لكنها عادت إليها مرة أخرى: «بخِري البيت يمه».

أحست الخالة الرتينة بشيءٍ ما لمْ يشعرها بالراحة .. كأنَّ الرسن تريد أنْ تقرر أمراً ما لا تعرفه .. سألت نفسها: لِمَ نادتها لأول مرة منذ التقتها بـ"يمه"؟ ولِمَ نادت المبروك بود سالمة؟ هي لا تناديها بـ"يمه» .. ولا تناديه بكنيته أبداً .. ماذا تقصد هذه الفتاة الطيبة؟ أصابها خدر لمْ تستحسنه، وتناوبتها أمواج لا تدري إلى أين مرساها، نهضت مِنْ مكانها وأضافت خليطاً مِنْ بخور التيمان والجاولي إليه، وجعلت تدعو مرة أخرى: «يا عين يا عينية .. يا كافرة يا نصرانية .. .. قل هو الله أحد مِنْ عين العجوز العنطروز .. ومِنْ عين العروس التقد التروس .. وعين الصبي شرن غبي .. ومِنْ عين الفتاه التقد الواطة .. ومِنْ عين الصغير التقد البير .. ومن عين الضيف الأحر مِن السيف .. ومِنْ عين الجار الأحر مِن النار .. ومِنْ عين الوالد شرن متقالد .. ومِنْ عين المزاح الأحر مِن السلاح .. يا عين يا عينية .. يا كافرة يا نصرانية .. يا مقطوعة الذرية .. يا كعبي يا ردية .. بعد ما كنت كسيرة .. بقيتي جبيرة .. أخرجي بقدرة نبينا .. ناقة النبي صالح .. عرجت ودرجت .. خسمتك بي التقية . أخرجي مِنْ عين عمتك بت جد أبوك .. ومِنْ عين المرة الفيها التره .. وعين العزبة التقد العتبة .. أخرجي .. أخرجي» ..

خفت الأبخرة قليلاً فنظرت إلى محتويات المِبخر، وضربت على صدرها قائلة: «سجمي يا الرسن .. بالله شوفي عين النسوان ديل دايرات ياكلنك أكل .. شوفيهن سوَّن شنو فِي الشب .. قهرتكن بالقاهر والنبي الطاهر .. قهرتكن بالله ومحمد رسول الله .. وقهرتكن بي علي نسيب النبي .. ».

خرجت إليها الرسن فِي ثوبٍ أبيض رائع .. كانت جميلة غاية فِي الجمال .. يشع مِنْ وجهها نور عجيب .. فرشت مصلاتها مستقبلة القبلة .. وصلت ركعتين .. رفعت يدها إلى السماء تدعو .. وتمددت على عنقريبها وقد رسمت ابتسامة ساحرة على شفتيها .. تناولت مصحفاً .. وقرأت بعض ما تيسر لها مِن القرآن .. وضعت المصحف على صدرها، ونادت على الخالة الرتينة:

• يمه .. تعالي جنبي ..

أحست الخالة الرتينة بألم لمْ تدر له موقعاً فِي جسدها .. أحست بأنْ قدميها لا تحملانها لكنها غالبتهما .. جلست بجانبها حتى تراها .. لكنها طلبت مِنْها أنْ تتمدد بجانبها وسألتها أنْ تضمها إليها .. لمْ تحتمل هذه الحالة فجعلت تبكي دون صوت .. سألتها أنْ تضمها إليها بقوة .. ففعلت .. وقالت:

• عارفة يمه الليلة شفته المبروك .. وشو زي القمرة .. أنا بريدو شديد يُمه .. لكن ما في قسمة فِي الفانية دي .. ربنا يجعل قسمتي

معاه فِي الجنة .. قولي آمين ..

تمتمت وهي تبكي فِي صمت: «آمين يا بتي» .. واستمرت تقول:

• حكيت ليه عنْ نصرة بت عجوبة وآدم عنقرة .. والجودلية وراجله .. وقلت ليه المرة دي قاصداك إت .. .. ضحك وقال لي بارك الله فيك .. ما تخافي .. الدايره رب العباد فِي الحجر بتقوم .. وكنت دايره أمشي .. منعني وقال لي ما تستعجلي المشي .. قلبي فره .. ويا الله الله مسكت دميعاتي .. وقعد يتونس معاي ساعة كاملة .. وتاني قام قال .. خلاص بعد ده أمشي .. وقتك جاء .. ما كنت عايزة أمشي لكن شفته دموعه جرن .. ما قدرت استحملن .. قمت صاده..

صمتت قليلاً وسمعتها تنطق بالشهادتين .. سكن جسدها .. لمْ تنظر إليها لكنها أغمضت عينيها بيدها اليمنى .. أحست بعظمة الموت وفجاعته وفجأته .. استغفرت ربها .. وندمت على ما قالته ساعة البخور .. تمنت أنْ تكون نهايتها هادئة كما كانت نهاية ابنتها الرسن .. أحست براحة وهي تستعيد مناداتها لها بـ"يمه» قبل أنْ تنتقل إلى جوار ربها .. ابتسمت وهي تودعها .. وجعلت تتمتم: «إنا لله وإنا إليه راجعون .. اللهم أجرنا فِي مصيبتنا واخلف لنا خيراً مِنْها» .. نهضت مِنْ مكانها .. غطتها بثوبٍ أبيض .. وخرجت تبكيها خارجاً.

(40)

نهض واقفاً، يحتويه فيض مِنْ مشاعر شديدة التباين .. لا يدري هل هذه هي حقيقة النساء أم هو كابوس لا يستطيع التخلص مِنه، لمْ يعرف سبباً واحداً يعزي إليه ما يحدث للجودلية .. كأنَّ بها جِنَّة .. همس يحادث نفسه: «هوسها بالولادة أسهل ألف مرة مِنْ خوفها أعرس فِيها مرة ثانية .. سبحان الله المرة كان فاس ما بتشق الراس»، مِن أين جاءتها هذه الفكرة؟ وكيف سيطرت عليها امرأة كنصرة بت عجوبة كودية الزار؟ كيف تقع فريسة لامرأة جاهلة ليس لها مِن الهم إلا خراب البيوت؟ حتى والده الحاج نور الدائم وأمه الضيين بت الهميم يشكان فِي أمره .. صحيح أنَّ الحاج نور الدائم بدرجةٍ أقل إلا أنَّ أمه لا تصدقه البتة .. بل هي على يقين مِنْ زواجه مِن أخرى، كأنَّها هي التي خطبت له هذه المرأة، وليست قولاً قالته نصرة بت عجوبة، جلس بين والديه وقال: «ليه ما عايزين تصدقوني؟ أنا لو عايز أعرس ما بدسها .. قبل كده سويته قدام أهل الفريق كلهم .. أجي أخاف مِنْ مرة بعد ما شيبت! إتوا ما بتعرفوني؟» صمت قليلاً

ثم أردف: ».. أنا أعرس فوق الجودلية ليه .. يا حاج أسمعني .. أنا كل شغلي مع الجماعة ديل فِي السعية لا شفته نسوانم ولا عندي شوق فِيهن» ..

دخلت عليهم الجودلية وهم على هذه الحال، دموعها لا تكاد تجف إلا وتنهمر مرة أخرى، سمعت كلماته الأخيرة .. نظرت إليهم كأنَّها لا تراهم، قالت بصوتٍ مكسور:

• سويت ليك شنو عشان تعرس فيني .. استحملتك الوكت ده كلو .. وكت شميت العافية .. مشيت تفتش ليك مرة تانية .. ما قدرت علي العنقريب .. داير تجيب ليك واحدة تحلبك ..

نهضت الضيين وهي تبكي وتبسمل وتحوقل، احتضنتها وهي تقول لها:

• استهدي بالله يا بتي .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. عين وقعت فيكم .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

نظر إليها الدُّخري نظرة آسفة، وقال:

• لا حول ولا قوة إلا بالله .. صحي الدُّنيا بِتَلدا بلا دَرَّة .. يا بت الحلال شيلي الكلام ده مِنْ راسك .. أنا ما بدور أعرس فِيك .. بعد شاب دخلوهوا الكتاب .. بعد السنين دي كلها .. مرة زي دي تجيب ليك كلام تصديقيه .. إت جنيتي!

صرخت بألم:

• شنو الما بخليني أجن .. عشت معاك زمني ده كلو صابره .. أول ما تشم العافية .. تمرقه فيني .. بس طلقني هسه .. قبل ما تدخل علي مرة تانية ..

اتجه ناحيتها وقبل رأسها وهي على حضن أمه، وقال:

• استهدي بالله يا ولية .. أنا أفوتك أمشي وين .. كمان جابت ليها طلاق ..

قال حاج نور الدائم:

• كله مِنْ راس الهوس دي .. دخلتوها علينا بالزار وبي معصية رب العباد .. يمهل ولا يهمل .. واسمعوا كلام راجل شايب عرف الدنيا دي بي عدلته وقلبته .. المرة دي ما قاصداكم انتم .. بس هي دايره تخرب عليكم شان تقلبوا على العُشاري المبروك ..

كأنْ قد أصابها مس مِنْ عمل الشيطان، اجتاحتها نوبة مِن البكاء والتشنج .. وسقطت على الأرض وهي تصرخ فِي عصبية: «كله مِنك يا ود سالمة .. كجرته وخليته يفتش فِي النسوان .. مِنْ صدر لي صدر لمن يخش القبر .. مِنْ صدر لي صدر لمن يخش القبر» .. نادت الضيين على الخادم العجوز ست الجيل .. ونقلوها بمساعدة الدُّخري إلى غرفتها، أحس الدُّخري بالخوف على زوجته الحبيبة مِنْ هذه الأوهام التي لا تريد أنْ تتخلى عنْها .. تكاد تجن بسبب وشاية منقولة لها .. استعاد كلماتها عن المبروك .. ماذا تقصد؟ .. هل كجره؟ هلْ

صحيح أنَّه دعا عليه أنْ يعيش بقية حياته يتنقل بين صدور النساء إلى مماته؟ وكيف يدعو عليه بذلك وهو يريد أنْ يتزوج ابنته؟ أحس بثقلٍ فِي رأسه .. نظر إلى زوجته كأنَّه يودعها .. وجرت دمعة سخينة على خده وهو يراها على هذا الحال .. أدرك أنَّها تحبه بجنون .. وأنَّ الغيرة تأكلها أكلاً .. لا يدري ماذا يفعل لكي تصدقه .. لكنه سيفعل المستحيل ليعيدها إليه .. حتى إن اضطره الأمر إلى طلب علاجها مِنْ ود سالمة نفسه.

(41)

• **الرسول** فيك يا بت تاج السر .. ناوليني صحن الصيني الجخنون الفي الفضية الجوة برندة الحريم .. المفروكة خلاص بقت على الغرف .. والكسرة طرقتها .. باقي الملحات والسلطة العمود بكفيهن ..

نظرت التاية بت تاج السر للخادمة العجوز ست الجيل وقد افترت شفتاها عن ابتسامة ساخرة .. تعلم أنَّها حين تنشغل بالطبخ لا تتحرك وتريد مَنْ يخدمها لا مَنْ تخدمه .. أرادت أنْ تغيظها، فقالت وهي تفحص ملاح البامية المفروكة:

• ده شنو ده؟ كمان ساواها باللحمة البقري .. شرطِي عينا .. فِي مفروكة بسووها بي لحم البقر ..

لبسها الغضب فقالت وهي تهز «المفراكة» هزاً ذا معنى:

• سجمك يا بت تاج السر .. لحمتي ضاني .. أنا كمان بسوي البقر .. وكان ما عجبك بالسمنة البلدي .. ومزكيه ملحاتي كلهن بالحبهان والقرفة ..

ضحكت التاية بت تاج السر بعد أن أفلحت فِي إغضابها. جهزت

المرأتان العمود بطعام طيب .. ورصت الخادم العجوز «طرقات الكسرة» بعناية فائقة فِي صحن الصيني «الجخنون»، وغطته بطبق صغير، تناولت التاية ثوبها ولفته حولها .. بينما كانت الخادم العجوز تبحث عنْ شيءٍ ما .. سألتها صاحبتها:

• بِسْ! بتفتشي فِي شنو يا مرة .. اتأخرنا على الرجال ديل ..

قالت فِي ضيق، دون أنْ تلتفت ناحيتها:

• البرطوش ده غتس وين؟

وجدت حذاءها الذي تبحث عنه أخيراً .. امتطته على عجل بعد أنْ نفضته مرتين مِن الغبار .. لفت ثوبها على جسدها .. وتناولت عددًا مِنْ حبات الفلفل الأسود وربطتهن على طرف الثوب .. وتناولت العمود بيد وناولت التاية صحن الصيني .. وخرجتا إلى الشارع واتجهتا إلى سوق المدينة تحملان الطعام هدية للمبروك.

افترش العاملون بدكان كبلو للنجارة الأرض حول عمود الطعام الذي وزعت بجانب الصحن «الجخنون» .. وأجهزوا على طيباته كلها، اتخذ المبروك جانباً قصياً مِن المنجرة فرش عليه «تبروقة» الصلاة مستقبلاً القبلة .. وتناول الإبريق وتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله بما يلزم، اقتعد عليها مسنداً ظهره على حائط الدكان، وحاول أنْ يستعيد حديث السيدتين اللتين زارتاه قصداً ومعنًى، وأطعمتاه مِنْ طيب الرزق مع عماله، لمْ تترك الخادمة العجوز ست

الجيل شيئاً لمْ تحكه حين رأت مِنْ سيدتها تحفظاً، ارتسم له طيف الجودلية بت كروم ود المساعد، زوجة الدُّخري ود نور الدائم، بوجهٍ آمل .. دموعه الجارفة لا تكاد تسكن، كأنَّه يترجاه أنْ يجد لها حلاً .. هي كأي امرأة تتمنى الذرية الصالحة كما تتمنى الزوج الحبيب .. لكنه أمر الله الذي لا راد لأمره ، تمتم مرتلاً: ﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لِمَنْ يشاء إناثاً ويهب لِمَنْ يشاء الذكور* أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل مَنْ يشاء عقيما إنه عليم قدير﴾ .. صدق الله العظيم. ماذا يمكنه أنْ يفعل لأجلها غير الدعاء؟ استعاد كلمات الخادم العجوز ست الجيل: «يا المبروك عاوزنك تمسح علي بطنه وكمان تمسح علي عُرانه» تمنت الأم التاية بت تاج السر أنْ تنشق الأرض وتبتلعها .. أشاحت بوجهها عنْ خادمتها ولمْ تعرف أتغضب مِنْها أم تؤكد كلامها .. هي نفسها تأمل أنْ ترى حفيدها أو حفيدتها .. تريد أنْ ترى جديدها وتحمله وتحتضنه.

سحب نفساً عميقاً إلى رئتيه وزفره بقوة .. وسأل نفسه: «ماذا تريد هذه المرأة الحيزبون مِن الجودلية وزوجها؟ ولِمَ تحاول أنْ تدق إسفيناً بينه وبين والد فطين؟ وما هي حكاية مرض الجودلية الجديد؟ هل تحاول أنْ تدفعها إلى الجنون؟» وتذكر الرجال الذين حاولوا قتله فِي المرة السابقة مستخدمين كلابهم .. لمْ ينجحوا فِي الوصول إلى هدفهم .. فهربوا وهربت نصرة مِنْ فريق «بير الشيخ» .. لكنها عادت مرة

أخرى مِن الأبواب الخلفية .. وهذه المرة فِي معية آدم عنقرة الذي يدعي أنَّه يسيطر على نوع جديد مِن الجن السفلي .. ينسبه إلى الترك والشراكسة .. جاء به مِنْ هضبة الأناضول .. إذ يدعي آدم أنَّ فِي دمائه عرقًا تركيًّا مكنه مِن السيطرة على هذا الجن السُّفلي .. وأنَّ مِنْ مزاياه أنَّه يلتصق بجسد مَنْ يسلطه عليه، فلا يستطيع مِنْه فكاكاً إلا بالموت أو بالجنون .. وهو قادر على التفريق بين المرء وزوجه .. متخصص فِي أجساد النساء .. ينهشهن ويغتصبهن أحياناً .. ونصرة تذيع ذلك وتنقله مِنْ بيت إلى بيت كما تنتقل النار فِي الهشيم .. حتى الدُّخري صدق هذا الافتراء الغبي .. سبحان الله .. قرأ الفاتحة وآية الكرسي والإخلاص والمعوذتين وردد مرتلاً: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ .. ﴿قال فاخرج مِنْها فإنك رجيم* وإنَّ عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾ .. صدق الله العظيم.

(42)

فِي تلك الأثناء، كانت نصرة بت عجوبة كودية الزار تزور آدم عنقرة فِي داره خلف سوق المدينة، كانت الدار تعج بروائح وأبخرة متباينة لا تدري على وجه الدقة أيها الأكثر نفاذاً وتأثيراً، حتى الإضاءة فِيها الكثير مَن الاختلاف والتدرج فلا هو النهار ولا هو الليل، والناس يدخلون إليها بحال، ويخرجون مِنْها بحال، دون أنْ يدركوا أي الحالين أفضل وأبقى، أحست نصرة بشيءٍ مِن الخوف يسري فِي أوصالها وقد اعتادت أنْ تعالج علل الناس، لا أنْ يعالجوا عِلتها، لكنها ولجت إلى عالم آدم عنقرة بيقينٍ لا يشوبه شك فِي أنَّه مخلصها مِنْ سطوة ود سالمة، الذي هدم ما بنته وقسا على رجالها وكلابها، بدت يائسة ومستسلمة لقدرٍ محتوم، لا تدري على أي وجه ستستقبله، تتلفت يمنة ويسرة يقودها الفضول ويحدوها الأمل.

آدم عنقرة رجل طويل القامة، فِي جسمه بسطة، وفِي لونه بياض، وشعره طويل سرح مستقيم، ربما بسبب ما يدعيه مِنْ دمٍ ورثه

عنْ جده التركي، أكثر ما يميزه ملامحه الدقيقة التي تنم عنْ ذكاءٍ فاحش، عيناه ذواتا اللون الأخضر .. أو عينا «الكديس» كما كان الناس يصفونهما .. وكان غريباً أنْ يسمى رجل بهذه الصفات بهذا الاسم .. لكن العارفين به يرجعونه إلى كونه ابن سفاح، كانت أمه تخدم فِي قصر أبيه التركي الذي عشقها فزنا بها .. وطردها حين علم بحملها .. فسمته على اسم أحد شيوخ قبيلتها .. وهذا سبب اتصاله بالجِن السفلي الذي تعلمه مِنْ ذلك الشيخ.

ذاع صيت آدم عنقرة بعد وفاة الشيخ .. وأصاب شهرة أينما حل .. ساعده فِي ذلك شكله ولونه وطوله الفارع وعينا «الكديس» .. منحته هذه الصفات مجتمعة نوعاً مِن الوقار المخيف.

جلست نصرة بجانب إحدى النساء تتنظر دورها، فعلى معرفتها بآدم إلا أنه يلزم كل ضيوفه بقوانين صارمة مِنها أولوية الموعد .. إذ لكل زائر ميقات محدد مسبقاً للدخول إليه، كان موعدها عند الزوال .. يصيبها الخوف فِي كل مرة تزوره فِيها .. سألها فِي آخر زيارة لها عن السبب الذي أتت مِن أجله، فحدثته عنْ رغبتها فِي التخلص مِن العُشاري ود سالمة، وقصت له ما بينها وبينه مِنْ عداوة، وكيف أنَّه أفشل جميع خططها للسيطرة على فريق «بير الشيخ» والفرقان المجاورة له .. وحكت له ما نقل لها عنْ عراكه مع رجالها وكلابها، وعنْ علاجه للدخري ود نور الدائم بعد أنْ

كاد يموت .. وزادت فِي كل حكاويها حتى تضفي أهمية لما تقول .. كان يسمعها فِي صمت أشبه بصمت القبور .. وكان وجهه جامداً كالمقامرين لا تعبر ملامحه عن الأثر الذي أحدثته رواياتها وقصصها وحكاويها بأي شيء كأنه لمْ يسمعها، فقط حدد لها موعدها اليوم ليقول قوله الفصل فِي الأمر.

كانت خفقات قلبها تزداد قوة .. وكلما ازداد الخفقان ازدادت خوفاً .. تعجبت لحالها فهي مَنْ صنع هذه الأجواء للناس .. وهي التي تجيد صنعها ورسمها باحترافية .. كيف لها أنْ تهاب مثل هذه المواقف؟! بلل جسدها العرق وهي لا تدري كيف تسيطر على نفسها .. فكرت فِي الهروب .. كأنَّ الذي يزرع هذا الخوف القاتل هو العُشاري ود سالمة وليس آدم عنقرة .. حان وقتها واستدعتها امرأة فِي مقتبل العمر للدخول إليه، دلفت إلى غرفته أو كما يسمونها غرفة الخُدام، فرأته جالساً خلف طاولة مستديرة .. تتوسطها كرة بلورية تعكس ألواناً تقع عليها مِنْ مصدرٍ للضوء لمْ تكد تتبينه، تلفتت حولها فإذا الجدران تحمل رؤوساً لحيوانات وحشية متعددة؛ فهذا رأس غزال وذاك رأس نمر، وهناك رأس أسد وفي الناحية الأخرى رأس قرد، إضاءة الغرفة ورائحتها أقرب إلى صورة القبور فِي مخيلتها، جلست قبالته بعد أنْ رحب بها، كان يبدو طويلاً حتى فِي جلوسه بينما بدت قصيرة حتى فِي وقوفها، أنصت إليها جيداً

وهي تعيد حكاية قصتها بتأنٍ وتريث، وأفصحت بأنَّ مقصدها مزدوج، فهي تريد أنْ تنتقم مِن الدُّخري والجودلية لأنهما لمْ يخضعا لعلاجها بالزار، وترغب فِي التخلص مِنْ ود سالمة لأنَّه كان سبباً فِي علاجهما وفضحها وطردها ورجالها وكلابها، وجعلت تذرف الكثير مِن الدموع، لمْ يمهلها كثيراً ولمْ يمهل دموعها الوقت الكافي للتعبير عنْ حالها، بل قال آمراً:

• معادك معاي ليلة السبت الجاي .. تجي بعد العشاء .. تجيبي معاك بيوض بعشوم عمره ما يزيد فِي سنة .. والخدام طالبين بخور ندر خواجة .. وبخور شاشوق .. وموية ورد .. و500 ألف دفعة أولى .. وتجي بدري قبال معادك بي ساعتين .. تلقي حميدة خدامتي مستنياك .. تحميك وتدلكك .. وتديك بوخة فِي حفرة الدخان ..

قاطعته قائلة:

• يا سيدنا .. الكلام ده كيفن ببقى؟ أجيب ليك جنى الجدادتين اللات بعشوم مِنْ وين؟ والقروش والبخور وموية الورد عرفناه .. البخليني استحم وأدلك واتكبرت عند حميدة شنو؟ فِي بيتي بسويهن! بس أسويهن ليه .. أنا عايزه أنتقم مِن الناس ديل بس ..

انتفض قائماً، وقال بغضب:

• إسمن بيوض يا ولية .. ما جنى الجدادتين .. بيوض بعشوم

صغير ما تمه سنة .. فاهمة .. ولا أعيده تاني ..

صمت برهة وقال منهياً الحديث:

• ولّا أقول ليك .. على إيه .. كده الكلام انتهى يا بت عجوبة .. مع السلامة .. ما عايز أشوفك هنا تاني .. إنتي كان فيك فايدة كان ده بقى حالك .. غوري مِنْ وشي خلي الخواجة ولولية بتاعينك ديل ينفعوك ..

نادى منفعلاً:

• حمدية .. مرجان .. فرج الله .. تعالوا أرموا المرة الكافرة دي برة ..

دب الخوف فِي قلبها وكاد أنْ يغشى عليها، وبدأ جسمها كله يرتجف وهي لا تدري ماذا فعلت؟ دخلت حمدية أولاً وتبعها كل مِنْ مرجان وفرج الله بأجسامهما الضخمة، زاد خوفها أكثر .. سحبتها حمدية مِنْ يدها فتبعتها مندهشة لا تقوى على شيء .. خرجوا بها مِنْ غرفة الشيخ آدم .. أشارت حمدية للرجلين ليتركاهما، وأدخلت نصرة غرفة أخرى، وقالت لها بقسوة:

• شنو العملتيه ده يا مرة؟ إت ما نصيحة! سيدنا طردك ليه؟

قالت بصوت منكسرٍ خفيض:

• والله ما عملته حاجة .. سألت بس لزوم أتبرد وأدلك وأتكبرت هنا شنو؟ ما أجي جاهزه .. كمان لزومو شنو ده كله؟

لكزتها لكزة آلمتها، وقالت:

• عليك الله إتي ماك مجنونة .. ود الترك بدور يبل ريقه منك شان الخُدام يرضو عنك .. وإت بتسألي .. قايلة نفسك فتاة ولا شنو! أريتو حالي .. طول وعُرض .. بختك!

كادت نصرة بت عجوبة أنْ تسقط على الأرض مغشياً عليها مِنْ هول المفاجأة، نظرت لها فِي بلاهة وهي لا تكاد تنطق بحرف، تأتأت قائلة: سجمي!

(43)

عانق الحاج نور الدائم شيخ العطارين العُشاري المبروك وصاحبيه زكريا الكباشي وجاد الله ود عوض الكريم أمام الباب الخارجي لدار ابنه الدُّخري، انتظره بالقرب مِن الباب وفتحه مرحباً مِن أول نقرة، شاهد الكثير مِن الفضوليين مِن أهل فريق «بير الشيخ» هذا العناق، وانقلبوا على أعقابهم يفسرونه أنَّا شاءوا، دلف العُشاري وصاحباه إلى داخل الدار والحاج نور الدائم يرحب بهم فِي وقار، قائلاً: «مرحب بالمبروك .. أهلاً بالعُشاري تمساح الدميرة .. هلا برجال الفريق وغرته .. خشوا لا جوة .. البيت بيتكم».

التقوا الدُّخري عند «ديوان» الرجال، استقبلهم بفتور .. لمْ يتأثروا بهذا الاستقبال الفاتر، وردوه بابتساماتٍ شاكرة ووجوهٍ طلقة، أجلسهم الحاج نور الدائم بجانبه وتعمد أنْ يفصل بينهم وبين ابنه حتى لا يحس الضيف المبروك وصاحباه بفتوره وضيقه، لمْ ينتظر طويلاً وبادر قائلاً موجهاً حديثه للعُشاري:

• يا المبروك يا ولدي .. صحي نحن في بيت عمك الدُّخري إلا

أنا الناديتك هنا .. فِي شان خالتك الجودلية .. الولية غلبت الدواء والطبيب .. لا عطارة نفعت ولا طب نفع .. مهمومة طوالي .. وكل الفي راسه أنه عمك عايز يعرس فوقه .. وأهو قدامك .. لا هو عرس ولا بفكر يتني .. وغلبنه تب النسويه معاها .. وخايفين عليها يا ولدي تموت ولا تفوِّت ..

أجابه بهدوء وثقة:

• إنْ شاء الله خير يابا .. بس بدور آخد إذنكم .. واسمع مِن الحاجة التاية بت تاج السر والحاجة الضيين بت الهميم .. فِي كلام بعرفنه النسوان نحن الرجال ديل ما بنعرفوا ..

تململ الدُّخري فِي كرسيه، وتمتم قائلاً:

• يقعد معاك كبير البيت ورجاله .. تقول داير تقعد مع النسوان .. يا ود الأصول ..

ابتسم العُشاري لكنه لمْ يجبه، حتى الحاج نور الدائم تجاهل حديثه العدائي، وقال مشجعاً للمبروك:

• صحي يا ولدي .. نحن الرجال العجائز ديل ما بنعرفن .. بقعدك هسه معاهن .. كلمن .. وابقى عشرة على خالتك الجودلية .. إت ما محتاج وصية يابن الأصول ..

حكت المرأتان للمبروك كل شيء عنْ مرض الجودلية وهوسها بنية الدُّخري الزواج مِنْ ثانية حددتها لهن بأنها إحدى بنات شيخ

تجار السعية ، حكت له التاية بدمع سخين معاناة بنتها مع العُقر، وكيف أنَّها تريد أن تنجب طفلاً لزوجها الدُّخري، وذكرت له الضيين إيمانها بقدراته على علاج كُنَتها وأنَّها بإذن الله ستنجب لزوجها الولد الذي ينتظره، طلب مِنهما أنْ يجلس إليها قليلاً فربما يمنَّ الله عليه ويلهمه معرفة العلة ووصف الدواء، مؤكداً أنَّه ليس طبيباً، لكن ربما يجري الله على يديه أمراً كان مفعولاً.

أحس بحرج المرأتين حين تبادلتا النظرات، فقال لهما: «ما تخافن يا أمات .. أنا عارف إنها ما دايره تشوفني .. وعارف البتعمله نصرة بت عجوبة مع آدم عنقرة .. وكل أول وليه آخر .. كمان حاجة التاية كلمتني مِنْ سابق .. عن حاجات كتيره .. ربنا يسهل ودعواتكن يا أماتنا"

أدخلتاه غرفتها بعد أنْ تقدمتهما التاية لتجهيز ابنتها حتى تقابل رجلاً غريباً عنْها، بدت خائفة مِنْه وغير متحمسة لوجوده، نظر إليها مِنْ رأس شعرها حتى أخمص قدميها وهي تحاول جاهدة ستر نفسها .. بدأت أنفاسها تتسارع وجسدها يرتعش بشدة كلما قرأ شيئاً مِن القرآن .. تعالت صرخاتها دون أنْ يلمسها .. ظل يقرأ ويدعو بصوتٍ عالٍ .. تزايدت قوة ارتعاشات جسدها حتى أغمي عليها .. توقف عنْ ترتيل القرآن والدعاء .. واستغفر الله وبسمل وحوقل وكبر، صمت برهة، والمرأتان تتبادلان النظرات

فِي شيءٍ مِن الخوف، شعر بخوفها وتبسم قائلاً وموجهاً حديثه للحاجة الضيين بت الهميم: «يُمه طبعاً بتعرفي الحمريب، وبتعرفي كيف بستعملوه .. عايزك تديه للخالة الجودلية مرتين فِي اليوم لمدة تسعين يوم .. وأنا حأجي أزوركم بعد عشرة أيام .. إنْ شاء الله تشفي .. بس خلن كل تكالكن علي رب العالمين .. هو الشافي والمعافي» ..

دهشت المرأة لما سمعته مِنْه .. وظهر ذلك جلياً على ملامح وجهها وهي تردد ».. حمريب! حمريب!» .. والتاية تنظر إليها وقد أحست أنَّ هناك شيئاً مر تحت مسامعها لمْ تفهمه .. وأنَّ نسيبة ابنتها قد عجبت له .. لكنها خجلت أنْ تسأل .. حتى حين شنفت أذنيها بزغرودة طويلة خرجت تحمل بشارات لا تسعها الأفراح مِنْ بين شفتي الضيين بت الهميم .. سمع الرجال فِي ديوانهم زغرودة الضيين .. عرفها الحاج نور الدائم .. نهض مِنْ مكانه وأمسك بتلابيب ابنه .. ولمْ يزد شيئاً سوى كلمة مبروك .. والدموع تجري مِنْ بين جفونه هاربة غير مكترثة لتعاريج الزمان.

(44)

كعادته، جلس محمود ود الصارقيل فِي المقهى وسط سوق المدينة، واضعاً ساقاً على ساق رغم اعتراض بطنه المتمدد إلى الأمام بلا كابح، وهو يمسح بمنديله الأبيض الكبير على صلعته كلما جرى فِيها العرق، والناس قد تسوروا حوله كعادتهم، ليسمعوا آخر أخبار «فريق بير الشيخ»، والفرقان المجاورة، وسوق المدينة، وحال تجاره، وأسعار السلع، الجديد مِنْها والقديم، كان فِي بدانته وقصره الواضحين أشبه بكاهن يعرف تماماً كيف يأسر مستمعيه ومشاهديه، وكيف يسبي مشاعرهم وجوارحهم، بل وكيف يفصلهم عن الدنيا خارج محيط تسورهم حوله، كانت طريقته فِي سرد الأخبار جاذبة تدفع الناس إليه دفعاً محبباً، وكان مخزون جرابه لا ينضب مِن الأخبار، والمتسورون لا يكذبون له خبراً قط، فهو دائماً عند حُسن الظن به، يعيشون معه دائماً فِي حالة انبهارٍ مطلق.

كانوا ينظرون إليه بأعينٍ محدقة وأفواهٍ ساقطة، الدهشة تحتويهم احتواء السوار للمعصم، وكان يحكي هذه المرة عما قام به المبروك

لإيقاف نصرة بت عجوبة وآدم عنقرة نهائياً وإجبارهما على الخروج مِنْ «فريق بير الشيخ» وسوق المدينة الكبير وما جاورهما منْ «الفرقان» بلا أملٍ فِي العودة، قال وهو يضغط على الكلمات ضغطاً متعمداً:

• السواه المبروك فِي نصرة بت عجوبة وآدم عنقرة .. ما فِي راجلن بسويه .. ده سحار عديل يأخ .. علي الطلاق بالتلاتة ده حير إبليس ذاته خلي نصرة أم فص .. والحلبي المتورك ..

قاطعه أحدهم متعجلاً:

• قول يأخي .. أحكي شحتفتنا .. برانا ماسكانا أم هالله هالله ..

نظر إليه بازدراءٍ، وأكمل دون أنْ يعيره شديد اهتمام:

• تذكروا الخالة الرتينة بت الكُع الكانت ساكنة مع الشيخة الرسن فِي المسيد .. ولا نسيتوها شان تابت ..

أجابوه بنفسٍ واحد:

• كيف ما بنتذكره .. هو بيت الرسن بتنسى .. الله يجازي اللي كان السبب.

صرخ فيهم صاحب المقهى قائلاً:

• اذكروا محاسن موتاكم .. الله يدينا ويديكم حسن الخاتمة ..

تضايق أحدهم، فاستحثه قائلاً:

• عليك الله سيبك مِن الناس دي .. قول .. أحكي .. روحنا مرقت ..

واستمر يقول:

• جاب الرتينة واتفق معاها تجيب ليه أخبار نصرة .. وبتعمل شنو مع آدم عنقرة ..

صمت برهة ثم أكمل متندراً:

• يأخي النسوان ديل عندهن محن! المرة لصقت لي أخته .. وقالت ليها اشتقته لأيام زمان .. وعيييك النعجة صدقت .. وطوالي درشت الشمار .. لمن وصلت لشحدة آدم عنقرة ليها ..

قاطعه أحدهم مرة أخرى:

• شحده شنو؟ دايره تسوي له حفلة زار يعني؟

ضحك الجميع فأكمل ود الصارقيل قائلاً:

• هيا العنبلوق .. ماك عارف الراجل بشحد المرة شنو .. طيب! شحده بخور تيمان وفصين اللي لات توم وبصلتين وملاح أم دقوقة .. إنْ شاء الله يدقوك دق العيش فِي الصقيعة القدام شجرة لالوب ناس ود الشواطين .. يا ود الكلب ..

انتابت الحلقة موجة مِنْ موجات الضحك الساخر، وود الصارقيل ينظر إلى الرجل فِي تحد ساخرٍ مقصود وهو يهز رأسه هزاً، أردف مكملاً:

• سألته الرتينة: «أهه عملتي شنو؟» .. قاتليها أعمل شنو: «قطعتُه فِي حشاي!» .. ما تقولي حلبي ود تُرك .. لكن طول في عُرض .. غايتو ليلة! مِن الله ما خلقني ما ضقته زيها ..

صاح أحدهم:

• الله يكفينا شر الحروم .. ديل يشربنك بولِن ويخلنك تترع آآآآآآآآآآع .. وتقول الحمد لله على النعمة .. خاتي عليهن إبليس .. كان برسلن ليك وإنت نايم فِي أمانة الله .. تقوم الصباح تلقى نفسك مبلول .. أعوذ بالله منْهن ..

رسم ابتسامة عجيبة، وتناول سيجارة أشعلها، وسحب مِنْها نفسين زفرهما بسرعة، وأكمل:

• المهم الرتينة رقدت فِي قفاها لغاية ما حكت ليها عن العمل العملوا آدم عنقرة مع سفليه الجن التركي الجايبو معاه مِنْ بلدم الإسمها استانبول دي .. غايتو الحلبة ديل عندهم جنس أسامي ..

قاطعه نفس الرجل قائلاً:

• والله ليها ألف حق .. في ناس يسموا بلدهم استنا .. بول؟!

انتهره قائلاً:

• إت غبيان وجاهل زيها .. البلد اسمها استانبول مش استنا.. بول .. تبول فِي كرعيك .. عليكم الله ما تفقعوا مرارتنا ..

وأكمل بعد أن أخذ نفساً عميقاً مِنْ سيجارته:

• وكمان الرتينة عرفت إنه آدم عنقرة بدور يسلط الجن التركي عشان يحرق العُشاري المبروك جوة دكانه فِي السوق بدون ما واحد يعرف .. الحلبي المعفن عايز يحرق لينه المبروك .. الله يحرق دمه .. المهم المبروك ما أداه نفس .. ساق معاه زكريا وجاد الله بس .. مشى لغاية بيت آدم عنقرة .. وتوش دخل ليه في أوضة الخدام .. الحلبي اترقط .. وجاته كتكوته .. عمل فيها مجنون وناسو كبو الزوقة .. هيييع .. هيييع .. هييع .. الحُمرة الأباها المهدي .. الخالة الرتينة قالت المبروك صقعه ليك أم كف .. نزل سنونه في الواطة .. والحلبي جقلب .. وقاعد يقول ألحقوني! أب إيدن طرشة بكتلني! تاني تجي يا ود الكلب .. التركي ولا المتورك .. التركي ولا المتورك .. أما بت إبليس ديك فكت البريق وتاني ما في زول شافه تب .. مِن اليوم داك .. المهم آدم عنقره العفن قال للمبروك هو عمل شنو .. وختى العمل وين .. طوالي الخالة الرتينة مشت حفرت تحت حيطة بيت الدخري قدام قصاد ود القاضي .. ولقت بيوض البعشوم مدفونة زي ما وصفن ليهم آدم .. وشوية ورق فيه كلام شخبطة ودجل وشعوذة .. وأنتو عارفين الباقي .. الحمد لله ..

تبادل الجميع بسمات راضية .. ومضوا إلى حال سبيلهم وكل يضع صورة ما للمبروك فِي ذهنه تشبه آلهة الأساطير الإغريقية.

(45)

بدت بِشرية بت فطين قلقة النظرات، كأنَّ عقلها وقلبها وجوارحها تتابع شيئاً آخر بعيدًا كل البُعد عنْ مكانها الذي تقف عليه وزمانها الذي تعيش أمده، تنتابها شكوك عظيمة لا تعلم كيف تسيطر عليها، انغمست فِي شكوكها لا تدري أتلوم والدها الذي تحبه وتقدره، لكنها تعلم علم اليقين أنه لا يريد زواجها مِمَّنْ تحب، أم تلوم العُشاري نفسه الذي رضي بشرطٍ غيبي لا يستطيع تحقيقه ولا يقدر عليه، لكي يقطع السبيل على أبيها أمام الناس حتى لا يعتل به ثانية، وهي لا تريد أنْ تخسر أحدهما، تريدهما معاً لأنهما مستقبل حياتها، تتهيأ لمرحلة جديدة لكنها لا تعرف كيف ستكون حالها.

كانت أمها فطين بت الناظر ترقب هذه النظرات القلقة، وتعيش معها حالة النزاع بين أبيها وحبيبها، لكنها كانت على يقين بأنَّ العُشاري المبروك سينجح بمباركة مِن الله، فهذا الفتى لا يبشر بشيءٍ أو يقطع به إلا ويحدث، وهي لا تزال تذكره حين كان طفلاً صغيراً وبشرها بقدوم فطين عروسه التي لمْ يرها، لكنها فشلت

أنْ تنقل هذا اليقين إلى قلب ابنتها، اتجهت إلى حيث تجلس، لمْ تحس باقترابها إلى أنْ ربتت على ظهرها بحنان، التفتت إليها متفاجئة، وابتسمت، حدثتها فطين قائلة:

• بطلي قلق يا بتي .. إنْ شاء الله يحصل كل خير!

ابتسمت فِي وجه أمها، وقالت راجية:

• إنْ شاء الله يُمه .. يعني أبوي وقت رضي عنه لازم يخت ليه الشرط ده عشان يحرجه قدام الناس ..

ضحكت فطين، وقالت تطيب خاطرها:

• أبوك ما غلطان يا بنيتي .. دي الأصول .. و ..

قاطعتها قائلة:

• يمه أبوي خته العُقدة فِي المُنشار .. يعني العُشاري حيجيبوه ليه مِنْ وين؟

صمتت برهة، وأردفت:

• لكن يُمه الغريبة كل ما أسأل جدي أقول ليه أبوي عمل كده ليه؟ يضحك ويقول لي انقهري يا بت .. ده كلام رجال .. بعد شوية يقول لي أسمعي يا بت المطرطش .. أنا حأعرسه ليك غصبن عنْ عين أبوك .. بس خلينه نشوف حده وين .. كلها أيام ويرضى وينسى البعمل فيه ده .. مبروك عليك با بتي .. المبروك يستاهلك .. والله يُمه أنا ما عارفة جدي ده قاصد شنو!

شعرت فطين بأنَّ الحاج نور الدائم يعرف سراً لا يعرفونه، صحيح أنَّها على يقين مِن أنَّ العُشاري سيفي بما وعد به، وأنَّه سيأتي بأبيه الذي لا يعرف أحدٌ أين هو.. وهل هو حي أم ميت .. لكن قطعه بعودة أبيه وأنهَّ هو مَنْ سيخطب له بِشرِية بت الدُّخري ود نور الدائم شيخ العطارين بعد صلاة الجمعة القادمة مِن أهلها، يجعل يقينها بحدوث ذلك يقيناً لا يدانيه شك قط، تشعر بأنَّ هذا اليقين يملأ قلب الحاج نور الدائم .. لكن ليس هو فقط بل إنَّ هناك أمراً آخر يعرفه وحده دون غيره مِن الناس وإلا ما أكد لحفيدته بأنَّه سيزوجها مِنْه وإنْ لمْ يرض أبوها، سألت نفسها: «يعني شنو كلامه كلها أيام ويرضى وينسي البعمل فيه ده ..» الحاج نور الدائم رجل ذكي لا يمكن أنْ يكون قصده هو عودة والد العُشاري .. هناك سر آخر لا تعرفه .. ولا بُد لها مِن أنْ تعرفه، لكن، ما هو هذا السر الذي لا تعرفه؟ وما علاقته بابنتها وبالعُشاري وزواجهما؟ قلبت الأمور فِي عقلها وشعرت بأنَّ الدُّخري نفسه لا يعرف ما يجول فِي مخيلة والده، فجأة! خطرت لها خاطرة نسائية، فسألت ابنتها دون أنْ تنظر إليها حتى لا تلفت انتباهها لما تريد الوصول إليه:

• كيف حالة خالتك الجودلية؟ إنْ شاء الله تكون بقت كويسه!

أجابتها دون اكتراث:

• كويسه ما عندها عوجة .. سابت البكاء ورجعت زي زمان

مع أبوي .. بس سمعته حبوباتي بيقولن إنه حيلها ما شايله .. وبقت معصعصة ومهتشلة كده .. والغريبة قالن بتأكل كتير .. لكن برضها ماصت كله كله مِنْ شحم الدنيا ..

سكتت برهة، ثم ضحكت بصوتٍ عالٍ فسألتها:

• بتضحكي مالك؟

أجابتها وهي لا تزال تضحك:

• سمعتهن بقولوا بقت تبول كتير .. جريت منهن واتفقعت بالضحك .. يمكن جاها سُكري .. الله يشفيها ..

رددت فطين بهمس: «ضعفت، وبتاكل كتير وما ظاهر فِيها، وبتبول كتير كمان .. بركاتك يا ولدي .. ده نفس الحصل لي زمان .. قربت زي ما قال حاج نور الدائم .. عرفته سرك يا حاج» .. سمعت ابنتها وهي تسألها:

• الحمريب ده شنو يُمه؟

رسمت ابتسامة دهشة على شفتيها، وسألتها:

• جبتي الحمريب ده مِنْ وين يا بت؟

أجابتها:

• سمعته مِن العُشاري لمن قال لي حبوبتي الضيين تسويه لي خالتي الجودلية ..

همست قائلة:

• لكن ده بدوه للنفساء .. وهي ما نِفست لسه .. تلحقنا يا ود سالمة .. بكرة تطرش .. وبعده بطنه يمرق .. وتتم وتنفَس .. مبروك يا الجودلية .. صبرتي والله اداك .. صبرتي والله اداك ..

وانطلقت بخيالها بعيداً عنْها تحاول أن تُجلي هذا السر الذي لا يعرفه أحدٌ سواها والحاج نور الدائم.

(46)

نهضت الخادم العجوز ست الجيل مِنْ مجلسها أمام سيداتها المتمددات على «العناقريب» الثلاثة فِي حوش الحريم فِي دار الدُّخري، وهي تتمتم: «هسه لزومو شنو فِي الحراية دي وفِي وقت الغداء فِي زول بزور ليه زول .. غايتو النسوان بقن ما عندهن شغلة .. الواحدة تلفح توبة كف .. وتنطلق مِنْ بيت لي بيت .. والرجال خشمن عندهم .. ما دايرين نقة .. الله يكفينه شر الجايين» .. وصلت بعد جهد إلى الباب الخارجي، وهي تتمتم بكلامٍ غير مفهوم، صاحت بالطارق: «منو الفي الباب؟» .. سمعت صوت بِشْرِية تجيبها: » .. دي أنا يا حبوبة .. بِشْرِية بت فطين» .. تبسمت وفتحت الباب لكنها تسمرت فجأة، وجعلت تسعل بلا توقف دون أنْ تسمح للزائرتين بالدخول، بادرتها بِشْرِية مداعبة: «شنو يا حبوبة .. تُرِي كده .. خلينه نخش» .. شعرت الخادم العجوز بالحرج لكنها لمْ تجبها، بل جاهدت لتهرول إلى الداخل وكلفت ساقيها مِن العدو فوق ما تطيقان، دخلت على النسوة الثلاث وهي لا تكاد تجر أنفاسها، وقالت لهن: «الرقدات ليها شنو .. فطين بت الناظر وبتها

فِي الباب» .. نهضن مِنْ رقادهن وقد تفاجأن بزيارتهما بلا سبب .. يردن أنْ يستقبلنهما لكنهن لا يعرفن كيف يكون ذلك .. أو كيف يتم ذلك .. لمْ تترك لهن الزائرتان وقتاً كافياً للتفكير لاتخاذ ما يناسب الوضع .. دلفتا إلى حوش الحريم .. كانت التاية بت تاج السر هي أول مَنْ خرج مِنْ صدمة المفاجأة، ورحبت بهما، وأجلستهما حيث كانت تجلس، وجلست بالقرب مِن ابنتها، وبعد صمتٍ ثقيل مرت لحظاته ببطءٍ شديد، كسرت بِشْرِية الصمت قائلة:

• أمي جات تشوفك يا خالة الجودلية .. وتسلم عليك .. وبتقول عايزه تبارك ليك ..

تلفتن يحاولن أنْ يجدن تفسيراً لما يقال، لكن فطين لمْ تمهلهن، وقالت:

• معليش يا جماعة جيتكم فجأة .. لكن والله جيت أبارك ..

التفتت إلى الجودلية وأكملت:

• مبروك يا الجودلية .. و ..

قاطعتها الجودلية قائلة:

• الله يبارك فيك .. بس إت جاية تباركي ولا تحمدلي السلامة شان بقيت كويسه ..

أجابتها:

• الاتنين يأختي .. حمد الله على السلامة .. وألف مبروك ..

سألتها الضيين:

• جاية تباركي ليها فِي شنو يا فطين؟

أجابتها وهي باسمة:

• جاية أبارك ليك الحِمل ..

تبادلن النظرات فِي استغراب، ونهضت الجودلية واقفة تتلمس بطنها وتتبادل النظرات الحائرات مع أمها ونسيبتها وضرتها السابقة وابنتها، أردفت قائلة حين رأت حيرتهن:

• البحصل ليك ده حصل لي زمان لما حملت بي بشرية .. الضعفة .. وحيلي الماشايلني والأكل الكتير .. والأهم المبروك كان بجي شايل معاه حمريب .. وكنت مستغربة فِي الشافع الكل ما يزورني مع أمه كان يجيب معاه حمريب .. ما سألته .. وأمي قالت يمكن بجيبه مِن الخيران شان الوكت كان خريف .. وريحته الحمريب حلوة .. والحقيقة أمي كانت بتنشفه وتديني ليه ..

صرخت الجودلية بصوتٍ عالٍ:

• يعني أنا حامل ..

ثم سقطت مغشياً عليها .. فتسارعت النسوة إلى حملها إلى داخل الغرفة .. والمضيفتان لا تعرفان إنْ كان ما تقوله ضيفتهما صحيحاً أم لا .. تريدان أنْ تصدقا .. ولسان حالهما يردد: «الجودلية حامل بعد الأربعين سنة .. قادر الله على كل شيء!».

(47)

عزمت الضيين بت الهميم على تبصير ابنها حتى لا يحرجهم أمام أهل «فريق بير الشيخ» .. فيوصفوا بالجحود وعدم المروءة، بعد الذي أظهره المبروك مِن إخلاصٍ وحسن نية ورغبة صادقة فِي الزواج مِنْ بِشرِية، كانت تعلم صعوبة الأمر لكنها لمْ تعد تملك شيئاً ضد المبروك ولا أمه، عوضاً عما فعله لأجلهم، فالرجل هو أول مَنْ بشر بحفيدتها بِشْرِية حين كانوا جميعاً يعملون على طلاق أمها مِن أبيها، وهو الوحيد الذي عالج الدُّخري نفسه ليس مِن المرض فحسب بل مِن الموت أيضاً، بعد أنْ غلب الطب والطبيب، جعل الله على يده الشفاء وحفظ له حياته وأبقى على قدمه وساقه حين قرر الأطباء بترهما، والمبروك نفسه كان سبباً سخره الله لعلاج الجودلية التي كادت أنْ تجن ويذهب عقلها بسبب تعلقها بالولادة وغيرتها الشديدة على زوجها، وها هي الجودلية قد حمل بطنها بعد يأس، وشال بعد كبر، ولا أحد يصدق حتى بعد أن أكده الأطباء.

كل الأحداث الكبيرة والحلوة التي حدثت فِي أسرتهم ولابنها

الدُّخري تحديداً كانت مِنْ بعد الله بفضل المبروك، وعليه فلا يجب أنْ توضع العراقيل أمام زواجه مِنْ بِشرِية، ماذا يعني لابنها إنْ حضر أبوه ليخطب لابنه أم لا؟ هكذا سألت نفسها .. وأجابتها .. إذا كان الأب قد غاب كل هذه السنين ولا أحد يعلم إنْ كان حياً أو ميتاً .. فلِمَ الإصرار على حضوره؟ وأدركت أن ابنها لا يرغب فِي هذا الزواج .. لكنه لمْ يسأل نفسه: «لِمَ لمْ يتقدم أي شاب ليتزوج مِنْ بِشرِية أجمل فتيات الفريق، وأفضلهن حسباً، وأغناهن مالاً، وأكثرهن تديناً؟» شباب الفريق كلهم يعلمون أنهم لا يستطيعون الوقوف أمام المبروك .. وإن أصر أبوها على رأيه فإنَّها لنْ تتزوج إلى الأبد.

أسرت إلى زوجها الحاج نور الدائم بما يعِنُ فِي صدرها، فتقبل حديثها بابتسامة رائقة وقورة تحمل لها الكثير مِن الحب والمودة، وأثنى عليها وشد مِن أزرها، وقال: «كلامك طيب يا بت الهميم، أنصحي ولدك .. بس عايزك تطمئني.. أبو الولد جاي إنْ شاء الله .. وبيقطع لسان أب راساً قوي الزي المحراكة ده» ..

سألته: «حيجي كيف؟ عرفته مِنْ وين؟» ..

لمْ يزد فِي قوله: «ما دام المبروك قال بجي يبقى حيجي إنْ شاء الله» .. ثم أكمل: ».. ولدك حيجي بعد شوية ومعاه مرته .. أبقي وعيه .. ما يفوت الود ده .. ده مبروك وزول الله .. العمله ليه وللفريق

الحيكومة ما بتعمله» ..

لمْ يكد يكمل عبارته حتى سمعا طرقاً على الباب الخارجي، كما سمعا صوت الترباس ينزل فِي صريره المعتاد .. إيذاناً بمجيء الدُّخري وزوجته .. فهذا حاله لا ينتظر أحداً ليفتح له الباب .. بل يمد يده إلى الداخل .. لينزل الترباس العلوي ثم يدفع الباب ويدخل.

رحب الوالدان بولدهما وزوجته التي كانت تمسك بطنها كأنها لا تريده أنْ يتمدد فيراه الناس ويحسدوها على حملها الذي انتظرته سنين عدداً، وقامت الأم بواجب الضيافة كما يجب .. لكنها لمْ تستطع صبراً فبادرت ابنها قائلة:

• اسمع يا ولدي .. الفي راسك خله .. الولد كويس ومبروك .. وبتك دايراه .. ما تكسر بخاطره .. إنت داير بأبوه شنو .. هو زول ساب جناه السنين دي كلها .. ولا معروف حي ولا ميت .. داير منو شنو!

صمتت برهة وابنها ينظر إليها ويبتسم ساخراً، ثم قال منتهزاً فرصة صمتها:

• دي الأصول يُمه .. مش بتقولوا مبروك .. اليجيب أبوهو ويجيني .. يلقاني جاهز .. أديها ليه طوالي ..

قالت فِي غيظ:

• ده كلام ما بطلعوا بيه الدرنقل يا ولدي .. والرجال دناقر ما

كُبر عناقر .. أستر بتك بالمبروك وسيبك مِنْ سوات النبي .. بكرة بتخش الشيخوخة وبتكوس للدلكة واللخوخة ..

دهش لحديثها وسأل مستفسراً:

• المعنى؟

أجابته غاضبة:

• المعنى بكرة بتجيك مصيبة وبنرجع تاني نفتش لي المبروك يحلها ليك .. الولد ما خله ليك حاجة .. وإت مُصر تخت له العُقدة فِي المنشار ..

تحدثت الجودلية لأول مرة وهي تمسك ببطنها:

• والله يا خالة أنا معاك فِي الكلام البتقوليه ده .. الولد ما قصر معانا كلنا .. وقدر ما قهرناه ما عنده شيتن غير الصبر والبشاشة .. وما قاعد يخت دي فوق دي .. والله العمله كفه وزاد .. وهو يستاهل .. أديها ليه يا الدخري .. وأنا والله وندراً علي كان ربنا تمم المراد .. إلا أجهز بِشرِية بي حقي شان أكفر علي العمتله فِيها وفِي امها .. ومِنْ دربي دي يلاكي لي فطين بدور أعتذر ليها وأطلب مِنها السماح .. والله .. وما طالبني حليفه ما شفته مِنها شين تب .. إلا الشيطان شاطر .. وكفاها إنها بشرتني بالحمل ..

ابتسم الحاج نور الدائم الذي لمْ يشارك في الحديث قبلاً، لكنه رد عليها قائلاً:

• بت أصول يا بتي .. دي المحرية فيك .. وأبشرك .. مِنْ دربك ده أمشي سوي ندرك .. وجهزي لي عرس بِشْرِية .. بعد بكرة إن شاء الله بعد صلاة الجمعة ..

صمت برهة، ونهض مِنْ مجلسه، والتفتت إلى ولده قائلاً:

• أبقى علي كلمتك يا ولدي .. وما تبقى ونسة بنات عدَّن بنات .. وتصغرنه قدام الناس بعد شيبتنه دي ..

تعجب الدُّخري مِنْ ثقة أبيه لكنه لمْ ينبس ببنت شفة.

(48)

هاج «فريق بير الشيخ» وماج، فاليوم الجمعة، والناس ينتظرون الكثير مِن الأمور المتوقع حدوثها، ارتدى محمود ود الصارقيل أبهى حُلة عنده، ورش زخاتٍ مِنْ عطرٍ جميل الأريج واعتم بعمامة ليخفي صلعته المتعرقة دائماً، وجدع شالاً على كتفه فأكمل زينته كما أراد لها، وانطلق إلى دار المبروك قبل أنْ يعرج إلى مسجد المدينة حيث سيعقد قران العُشاري على بِشرِية بت الدُّخري ود نور الدائم، بعد أنْ يؤدي الجميع صلاة الجمعة، غشى فِي طريقه ود الجنيد صاحب المقهى الذي اعتاد الجلوس فِيه، وتزاملا سوياً فِي طريقهما، كان ود الصارقيل سعيداً بزواج المبروك الذي يحبه، بينما توجس صاحب المقهى خيفة مِنْ مفاجآت الدُّخري، وإصراره على إحضار المبروك لأبيه الغائب، لكن ود الصارقيل لمْ يأبه لخوفه بل قال فِي ثقة: «يا زول المبروك ما بقول كلامن ساكت فِي الهواء .. ده مكشوف عنه الحجاب .. قال أبوه بجي يعني بجي .. كان يرسل ليه الجن الأزرق بجيبه .. ما تشيل هم» .. وكان ود الجنيد يعجب لثقته

هذه، وازداد عجبه حين رأى المبروك يستقبل الناس فِي بشاشة فِي داره دون ظهور أثر واحد يدلل على عودة أبيه.

وعجب الناس كما عجب ود الجنيد .. فالصلاة على بُعيد ساعة .. وإنْ قضيت بلا ظهور لوالد العُشاري لأصبح الدُّخري فِي حلٍ مِن أمره، جعلوا يتلاومون فِيما صار عليه الأمر .. وسمعوا أحد كبار أهل بير الشيخ يقول لآخر: «لازم نتدخل .. الدُّخري راسه قوي .. وحالف ما يعرسه ليه .. بس ما عايز زول يلومه .. زول لئيم .. والولد ما خله ليه حاجة لكن تقول شنو تلصق الطين ما ببقى نعلي» .. حتى زكريا الكباشي وجاد الله عوض الكريم يبدو عليهما الخوف وعدم الثقة رغم اتصالهما الدائم بالمبروك فِي المنجرة .. كلاهما يخاف ألا يتم الأمر كما يشتهيان .. فقط الحاج نور الدائم هو الذي يشارك محمود ود الصارقيل ثقته واطمئنانه بعودة الغائب، وهو متواجد الآن فِي دار العريس المبروك .. لا فِي دار ابنه كأنَّه يريد أنْ يعلن موافقته ومباركته عملياً لهذا الزواج أمام الناس جميعاً.

كانت سالمة تستقبل المهنئات بابتسامة باشة، لكنهن أدركن أنَّ فيها شيئاً ما أكبر مِنْ فرحة الأم بزواج ابنها، كانت تبدو كأنثى تنتظر رجلها أيضاً، وكن يستغربن لهذه الصورة .. كيف لها أنْ تنتظر غائباً انقطع عنْها هذه السنين كُلها؟ وكيف لها أنْ تحتفظ بحبها له رغم عذاب الفراق الطويل بلا سبب واضح يلثم الجراح وينظفها

ويطببها؟ أشاع مظهرها الأنثوي الجميل الاطمئنان والأمان فِي قلوبهن .. وفتح طاقات الأمل عراضاً .. باركن لها زواج ابنها .. وهمسن فِي أذنيها: «الله يجمع» .. كانت تبتسم حين يباركن لها .. وتحمر وجنتاها حين يسألن لها الله همساً أنْ يجمعها مع الغائب الذي أبى أنْ يعود.

كان الحال فِي بيت الناظر أشبه بخلية النحل، فالزائرات لا يعرفن إنْ كن قد أتين لمباركة الزواج أم نعيه، وكان حال كل واحدة مِنْهن يعتمد فِيما يعتمد على قربها أو بعدها مِنْ فطين بت الناظر، فالقريبة مِنْهن تأمل أنْ ينتهي الأمر كما يجب أنْ ينتهي .. وأنْ يتم الزواج المأمول .. والبعيدة عنْها تريد أنْ تشاهد النهاية الحزينة لحلم عاش فِي الفريق ومات أو سيموت فِيه، لكن فطين كانت آملة وواثقة .. فيقينها فِي المبروك لا يقربه الشك لا مِنْ قريب ولا مِنْ بعيد.

امتلأ مسجد المدينة عن آخره .. لا مكان فِيه لقدم، كل يهاجر لِمَنْ هاجر له .. والكل يلتفت إلى مدخل المسجد ينتظر أنْ يرى شيئاً .. أقرب إلى الملاك بأجنحته العظيمة .. يدخل عليهم مِن أجل المبروك .. والدُّخري يجلس فِي آخر الصفوف .. متكئاً بظهره إلى الحائط .. يكاد يقهقه مِن التفات الناس وتعلقهم ببوابة المسجد.

فجأة دخل الحاج نور الدائم .. يتبعه العُشاري المبروك .. ويتبعهما رجل جميل الطلة .. فِي عباءة بيضاء .. ناصعة البياض .. يضيء

وجهه بشعاعٍ ملائكي .. له لحية سوداء يتخللها شيء مِنْ بياض .. وأدار الناسَ وجوههم بين لألاء الداخل والدُّخري الذي تباينت مشاعره فلا هو فرح ولا هو غضبان .. توجه الداخلون إلى حيث يجلس الدُّخري .. تناول الحاج نور الدائم يد ابنه، وهمس بصوتٍ خفيض: «مبروك يا ولدي .. إنْ شاء الله تشوف جديده» وقبل أنْ يجيب أباه أقيمت الصلاة لتغسل القلوب.

الحمد للّه